# الرحالة الفنلنديون إلى الشرق العربي

كاي أورنبري(*)

ترجمة: يسري يوسف

فتح عصر الاكتشافات العظمى للأوروبيين العالم، وكشف لهم تنوع الأجناس البشرية، هكذا تعلمنا ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ في الواقع، إن أوروبا قد انغلقت على نفسها واكتفت ذاتيا في عصر النهضة بالحضارة اليونانية الرومانية، مع تحقيق نتائج جيدة، ولم تهتم بالحضارات العالمية الأخرى. هذا وقد اهتم التجار والمغامرون والكنيسة بالمناطق الجديدة لأسباب مختلفة ولكن حضارة هذه المناطق لم تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لهم. وعلى الرغم من أن أدب الرحلة أصبح من أهم مجالات الأدب بعد القرن الخامس عشر، إلا أن الجزء الأعظم من الرحلات حتى بداية القرن التاسع عشر لم يتعد شرق البحر الأدرياتي.

وقد احتاج الناس إلى ما يُسمى بعصر النهضة الشرقية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لاكتشاف الأجزاء الأخرى من العالم، ونتيجة لذلك تعرّف الأوروبيون على الكتابة السنسكريتية وأدبها، وبعد ذلك على

(*) أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في معهد الدراسات العربية والإسلامية في جامعة هلسنكي، فنلندا.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون

اللغات والحضارات الأخرى التي لم يكن لها علاقة بالكتاب المقدس ولا بالآثار القديمة. وقد قدم العصر الرومانسي في بداية نموه في أوروبا فرصة عظيمة لعلم اللغات للبحث والتعرف على اللغات الأخرى، وقد نتج عن ذلك الاهتمام بتاريخ البلاد الأخرى.

تعتمد النهضة الشرقية إلى حد كبير على موضوع نشأة الحضارات، وقد تساءل روسّو في عام ١٧٤٩م (١١٦٢هـ): هل جلب التقدم العلمي والأدبي للإنسان السعادة والفضيلة؟ وأجاب بنفسه عن هذا السؤال فقال: إن التقدم الحضاري الذي حدث أفقد الإنسان براءة العادات القديمة وكذلك السعادة الناتجة عن العيش بالفطرة. وقال كذلك: إن التقدم الاقتصادي كان في الماضي وليس في المستقبل[1]. وتعد الهند دليلاً جيدًا على ذلك فقد كانت بلد العراة الحكماء. ولذلك تعد تسمية الهنود الحمر بهذا الاسم مناسبة، على الرغم من أنه نتج عن سوء تفاهم فقد عمل اليسوعيون على ترسيخ فكرة أن يصبح الهنود الحمر رمزًا للأشخاص غير المتحضرين.

وتعد اللغة العربية من أغنى اللغات في العالم، ولكنها في الوقت نفسه من أصعب اللغات. وكان بعض الباحثين لوقت طويل يرى أن بدو شبه الجزيرة العربية هم أفضل حافظي اللغة العربية؛ ولهذا فليس من الغريب أن نعرف أن الشعراء وعلماء النحو قد درسوا ونقلوا اللغة عن البدو

(1) Jean-Jacques Rousseau, Discours Sur les Sciences et les arts, 1750.

في القرون الأولى للإسلام، وللسبب نفسه أيضا أرسل الخلفاء الأمويون والعباسيون أولادهم وأتباعهم إلى الصحراء. وقد منع الخليفة عبدالملك ٦٨٥-٧٠٥م (٦٥-٨٦هـ) ابنه وخليفته في الحكم الوليد الأول من تعيينه في المدينتين المقدستين مكة والمدينة واليًا بسبب ضعف مستواه في اللغة العربية.

من جهة أخرى، قدم العديد من الباحثين الشبان من بلاد الشمال البعيدة - التي كان يعدها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى إلى حد كبير مناطق خالية من السكان - في القرن الثامن عشر إلى صحراء الجزيرة العربية لتحسين لغتهم العربية عند البدو. ولدراسة هذه اللغة بدأ الرحالة الفنلنديون رحلاتهم إلى الجزيرة العربية.

## الرحالة جورج أوغست والن:

حصل جورج أوغست والن على درجة الماجستير في الآداب من جامعة هلسنكي في عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ)، وكان موضوع دراسته اللغات الشرقية والكلاسيكية. ولسنا نعرف السبب الذي جعل والن يتعمق في دراسة اللغات الشرقية. فقد كان خلال دراسته طالبًا عاديًا لم يلفت نظر مدرسيه ولا زملائه الطلاب في دراسته، ومع مرور الوقت درس والن أشياء كثيرة متشعبة، ولكنه لم يتخصص في أي موضوع. وفيما يبدو أن الأستاذ جبريل غيتلين الذي عُيّن أستاذًا للأدب الشرقي في عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ)، هو الذي أثّر تأثيرًا واضحًا فيه، فقد تخصص والن بعد ذلك في دراسة اللغتين العربية والفارسية،

وفي عام ١٨٣٩م (١٢٥٤هـ) تناول والن في رسالته للدكتوراه الفرق بين العربية الفصحى واللهجة العامية، وفي العام نفسه عُيّن محاضرًا للأدب الشرقي(٢).

كانت سانت بطرسبورغ من مراكز أوروبا الرائدة في الدراسات الشرقية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وقد انتهز العديد من المستشرقين الفنلنديين هذه الفرصة التي قدمتها لهم هذه المدينة للحصول على تعليم أفضل. كان والن واحدًا من هؤلاء فقد سافر إلى سانت بطرسبورغ في خريف عام ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ) وكانت نيته أن يتابع الدراسة في الجامعة وفي معهد اللغات الشرقية. ومن الغريب أنه كان قد زار المدينة في بداية الربيع من ذلك العام للتعرف على إمكانية التحاقه بالخدمة في السلك الدبلوماسي الروسي. لماذا؟ لا نعرف السبب. المهم أنه اتخذ قرارًا بالعودة إلى سانت بطرسبورغ للدراسة في ذلك الوقت.

واهتم والن باللهجة العامية خلال دراسته ولم يكن شغوفًا بالدراسات النظرية ولا البحث في المخطوطات القديمة. وليس هذا أمرًا غريبًا فقد أخبرتنا مصادر عديدة عن موهبة والن في تعلم اللغات الأجنبية والتحدث بها بسهولة.

وفي سانت بطرسبورغ تابع والن بصفة مستمرة محاضرات المستشرقين اللامعين في الجامعة والمعروفين في

(2) H. Holma, “Georg August Wallin (1811-1852)", Studia Orientalia, Vol.17: 1 (1952), pp. 4-6.

مجال الأدب، وهم سنكوفسكي، وباروني برامبوس، وبرنهارد دورن، وأنطون موهلينسيكي. ومنذ ذلك الحين أصبح المعهد الشرقي التابع لوزارة الخارجية هو عش الدراسة لوالن، وكان مدرسا المعهد محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠-١٨٦١م (١٢٢٤-١٢٧٧هـ) مدرس اللغة العربية، وميرزا إسماعيل مدرس اللغة الفارسية، هما المشرفان على دراسة والن في المعهد وكذلك خارج المعهد. وكان للطنطاوي دور كبير في تشكيل حياة والن، فقد تطورت علاقتهما من علاقة طالب بأستاذه إلى علاقة صداقة دائمة، على غرار ما حدث في هلسنكي بين والن وأستاذه غيتلين(٣).

كان الطنطاوي الذي درس في الجامع الأزهر، قد دُعي إلى سانت بطرسبورغ للعمل بالمعهد الشرقي أستاذاً للغة العربية. وقد جذبت حكايات الطنطاوي في الجلسات المسائية انتباه والن، وشجعته على الذهاب بنفسه إلى البلاد العربية للتعرف على العرب والحضارة الإسلامية؛ ولذلك تقدم والن بطلب للحصول على منحة دراسية من جامعة هلسنكي عندما فتحت الجامعة الباب لذلك في خريف ١٨٤١م (١٢٥٦هـ)، وقد أوضح والن، في الملحق الخاص بخطة رحلته إلى البلاد العربية، القصور في دراسة لهجات العرب، ولتصحيح هذا الموقف فقد عزم والن على السفر إلى مصر وشبه الجزيرة العربية حسب الخطة الآتية: "... إلى

(3) Kaj Öhrnberg, “Wallin-aavikon Vaeltaja”, in kerkko Hakulinen and Olavi Heikkinen, Suomalaist Aasian Kavigat (Helsinki: Kirjay Htyma, 1980), pp. 37-38.

مصر التي ترحب بالأوروبيين أكثر من الدول الإسلامية الأخرى، وفيها تتم دراسة الأدب العربي وعلم اللغة بجدية إلى حد ما. علاوة على ذلك فأنا أتحدث اللهجة المصرية أفضل من أي لهجة أخرى. وسوف أسافر إلى القاهرة، بعد بقائي بالإسكندرية... ومنطقة الدلتا قرابة شهر، لأتعلم فقه اللغة العربية على يد العلماء، وكذلك لأتعود على طريقة الدراسة الشرقية التي تختلف عن طريقتنا. ومن القاهرة سأتجول في مصر عبر النيل، وسوف أتوغل في المناطق الداخلية على ضفاف النيل. وذلك للبحث في هذه المناطق عن لهجات مختلفة أو آثار قديمة تثير اهتمامي. بعد ذلك سوف أتوجه من أسوان، التي أتمنى أن أصل إليها خلال شهرين، إلى أقرب ميناء على البحر الأحمر ومن هناك سأبحر إلى اليمن. وسوف أقضي فيها نحو ستة أشهر، وهدفي من ذلك هو أن أكمل - حسب مقدرتي - المعلومات التي نقلها فرسنل عن اللغة الحميرية.

بعد ذلك سأسلك طريق القوافل إلى مكة مع الانعطاف تجاه الشرق لكي أتابع مراحل انصهار اللغة الحميرية في اللغة العربية. وأتمنى أن أكون في مكة وفي المناطق المحيطة خلال شهر. وأعتقد أنني بعد هذه الجولة الطويلة سأكون قد تعلمت اللغة العربية والعادات الإسلامية بقدر كافٍ مما سيجعلني أتجرأ على الذهاب إلى صحراء شبه الجزيرة العربية دون خوف بانكشاف أنني أجنبي. حينئذ سأقوم بجمع معلومات عن لغة وتاريخ وجغرافية هذا البلد المجهول للأوروبيين حتى يومنا هذا.

من مكة سأذهب مع إحدى القوافل إلى الدرعية التي سوف أبقى فيها نحو شهر، وهناك سأزور اليمامة والعارض وبصفة عامة سأحاول التعايش مع سكانها؛ لكي أتعرف عليهم وعلى تعاليمهم الدينية. وسوف أذهب من الدرعية إلى القطيف أو إلى ميناء آخر على الخليج العربي ثم بعد ذلك إلى البصرة بحرًا أو برًّا. وبعد بقائي هناك قليلاً من الوقت سأعود إلى الصحراء مع إحدى القوافل وسأتجه نحو المدينة، وعلى أي حال سوف أقضي بعض الوقت في العدوة.

بعد بقائي في المدينة نحو الشهر سأسلك طريق القوافل إلى فلسطين وبعد بقائي في القدس وفي هذه البلاد المعروفة سوف أذهب إلى أقرب ميناء على البحر الأبيض المتوسط لكي أبحر إلى إسطنبول. ولصعوبة تحديد أوقات رحلات الرحالة فلن أستطيع تحديد المدة التي ستستغرقها رحلتي في الصحراء..."(٤).

وضع والن لخطته ختامًا جميلاً، إذ أخذ على نفسه عهدًا أنه إذا تبقى مال من المنحة فسوف يسافر إلى قبائل التتار قبل عودته إلى بلاده، وهناك سوف يقوم بجمع معلومات لكشف درجة الصلة بين اللغة الفنلندية ولغة التتار. هذا وكان والن قد قدم مع طلب المنحة شهادات تزكية من مدرسيه، موهلينسكي أستاذ اللغة التركية بالجامعة، والطنطاوي المدرس بالمعهد الشرقي، فيها تقديرات ممتازة عن تقدمه في

(4) Kaj Öhrnberg, G. A. Wallin-Aavikon Vaeltaja, (Helsinki: Otava, 2007), pp. 51-52.

دراسته. وقال الطنطاوي: إن والن "قد وصل إلى مستوى مميز يجعله يقرأ ويكتب ويتكلم العربية بسهولة ويسر"(٥).

كانت خطة رحلة والن إلى الصحراء العربية، هي الخطة الأكثر جرأة من نوعها التي فكر "فيها فنلندي على الإطلاق"، وقد يكون هذا الكلام صحيحًا فعلاً. ومن الواضح أن والن أعد هذه الخطة بنية سليمة ودون تفكير دقيق، إذ كشفت هذه الخطة عن معلومات والن المتواضعة عن تاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها ولغتها. لم يتمكن والن وهو في طريقه في رحلته أثناء توقفه في باريس من الحصول على كتب وصف رحلات بوركهارت "رحلات في شبه الجزيرة العربية" و"ملاحظات حول البدو والوهابيين"، وسافر إلى الصحراء دون أي كتب ترشده فيها.

كان بوركهارت قد سافر إلى الشرق قبل والن ببضع عقود، وذهب إلى مصر وسيناء وشبه الجزيرة العربية. وقد نجح والن على الأقل في الحصول على الكتاب الأول في القاهرة قبل سفره إلى شبه الجزيرة العربية بوقت كاف، إذ يمثل بوركهارت المثل الأعلى لوالن كرحالة وواصف لرحلاته. وقد قابل والن في القاهرة الألماني أدولف فون وريده الذي زار المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وكذلك الفرنسي فولغينس فرسنل الذي كان يعمل قنصلاً في جدة، ولكن والن لم يستفد من هذه المقابلات في رحلاته.

(5) Ibid., p 53.

## ما قبل والن:

مع أن والن هو أول مستشرق فنلندي يذهب إلى الشرق الأوسط، إلا أنه لسبب لا نعرفه لم يذكر شيئًا عن سابقيه. ففي عقد الستينيات من القرن الثامن عشر ذهب كل من بيتر فورسكال ١٧٣٢-١٧٦٣م (١١٤٤-١١٧٦هـ)، الذي عُرِفَ بكونه فيلسوفًا وعالمًا في الطبيعة، وفيلهيلم روس إلىَ الشرق الأوسط ولم يعودا من هناك. ونحن لا نعرف هل كان لهذين الاثنين أي تأثير في خطط والن في الذهاب إلى الشرق الأوسط. ففي نهاية القرن التاسع عشر ذكر آرثر هيلت أن روس كان سابقًا لوالن[٦]، وكذلك ذكر فيلهيلم لاغوس، الذي كان من تلاميذ والن في عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) أن فورسكال كان المثل الأعلى لوالن[٧].

ولد بيتر فورسكال في هلسنكي ودرس في السويد وألمانيا وكان من تلاميذ لينّيه، وقد شارك فورسكال في الرحلة التي مولها ملك الدنمارك فريدريك الخامس إلى اليمن. كانت هذه الرحلة قد أبحرت في أول يناير ١٧٦١م (١١٧٤هـ) من كوبنهاغن إلى مصر عن طريق إسطنبول ووصلت مصر في شهر سبتمبر وقضت البعثة هناك عامًا، خلال هذا العام ركز فورسكال اهتمامه على اللغة العربية، التي كان قد درسها في غوتنغين (Gottingen). ووصلت معرفة فورسكال باللغة العربية إلى الدرجة التي جعلت كارستين نيبور (Carsten Niebuhr)،

(6) A. L. M. Hjelt, “Wilhelm Ross: Suomalainen Orientalist ja Matkustaja Viimvuosisodalla”, Lansi-Suomi, IV, 1890, S.1-44.

(7) W. Lagus, Petter Forskals Lefverne (Helsingfors, 1877).

العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بين كل أعضاء البعثة يذكر أن فورسكال كان الأكثر دراية بلهجات اللغة العربية من بينهم. بعد ذلك توجهت البعثة إلى اليمن في أكتوبر ١٧٦٢م (ربيع الأول ١١٧٦هـ)، وكان من المفروض أن تقضي البعثة هناك نحو سنتين أو ثلاثًا، ولكن فورسكال توفي بتأثير الملاريا بعد قرابة نصف سنة فقط في قرية تسمى يريم، وكان ذلك في الحادي عشر من شهر يوليو عام ١٧٦٣م (٢٢ ذي الحجة ١١٧٦هـ)، وبلا شك فإن رحلة فورسكال التي شملت: إسطنبول، الإسكندرية، القاهرة، اليمن تشبه إلى حد كبير المراحل الأولى من خطة رحلة والن إلى الشرق(٨).

جذبت رحلة فورسكال، التي دُرست دراسة واسعة، انتباه فيلهيلم روس أستاذ اللغات الشرقية في مدينة توركو، لدرجة أنه قرر أن يذهب إلى فلسطين، وبالفعل بدأ روس رحلته من توركو في إبريل ١٧٦٣م (شوال ١١٧٦هـ) قبل أشهر قليلة من موت فورسكال، ومن الجدير بالذكر أن معلوماتنا عن خط سير الرحلة وتوقيتاتها ناقصة إلى حد كبير. وفيما يبدو أن روس تنقل من مكان إلى آخر ببطء كي يستمتع بما يراه؛ فقد أبحر روس إلى إسبانيا وفرنسا ثم إلى إيطاليا التي وصل إليها بعد عام ونصف من بداية رحلته، وفي أواخر عام ١٧٦٤م (جمادى الآخرة ١١٧٨هـ) وأوائل عام ١٧٦٥م (رجب ١١٧٨هـ) أبحر روس صوب الإسكندرية، ولكن "برغم سعادته الكبيرة لم يستطع روس الاستمتاع بالعالم الجديد الذي انفتح أمامه فقد افتقد عنصرًا من أهم عناصر متطلبات الرحالة، ألا وهو المال".

(8) Ibid., S. 37F.

على أي حال استطاع روس الوصول إلى إسطنبول دون مال، ثم استمر في طريقه إلى سميرنا، ولما ضاق الخناق على روس أرسل رسالة يشرح فيها ظروفه المالية إلى القس في توركو. بناء على ذلك كلف القس الأستاذ بيركالم بجمع الأموال لروس الرحالة الأستاذ وعضو الكنيسة في توركو. ولكن هذا لم يكن بالأمر السهل فقد امتنع الأهل والأقارب عن المساعدة؛ لأنهم كانوا مقتنعين أن روس لم يكن ينوي العودة من رحلته هذه، واقترح أهل روس أن يتم إعادته إلى الوطن رغمًا عنه على متن سفينة سويدية. أما بالنسبة لأعضاء الكنيسة فقد كانوا أرحم من ذلك، وجمعوا لروس مبلغًا قليلاً من المال. وبهذا المبلغ القليل توجه روس إلى القدس، وركب سفينة من سميرنا إلى حيفا، ومن هناك كان ينوي الذهاب إلى القدس سيرًا على الأقدام عبر الصحراء الحارقة وتربُّص اللصوص، ولكنه على أي حال لم يكن معه أشياء كثيرة يخاف عليها من السرقة.

لم يكمل روس المسيرة فقد أرجعه الرهبان الفرنسيسكان إلى حيفا ووضعوه في سفينة أخذته إلى عكا في شمال فلسطين. أما عن سبب إرجاعه فالقصة كالآتي: كانت فلسطين في ذلك الوقت تابعة للعثمانيين الذين كانوا قد فرضوا دفع مبلغ من المال على كل أوروبي يأتي للحج في هذه البلاد، وكان الرهبان الفرنسيسكان يجمعون هذه الأموال ويرسلونها إلى الحكومة العثمانية، ولكنهم - وقد كانوا يعلمون بفقر الحجاج اللوثريين - كانوا يقومون بإرجاعهم لعدم الدخول في مشكلات الدفع معهم.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

من حلب بدأ روس محاولته الثالثة والأخيرة في الذهاب إلى القدس، ثم توفي في مكان ما بين حلب ودمشق ودُفن في رمال الصحراء، ومن المرجح أن وفاته حدثت في شهر يوليو ١٧٦٦م (المحرم ١١٨٠هـ)، ولم يصل خبر وفاته إلى فنلندا إلا بعد سنتين.

كان نيبور يعتقد أن مذكرات روس ستثري العلم إذا تم الحصول عليها في أوروبا. ومن الجدير بالذكر أن روس كان يحاول في رحلته تجنب الأوروبيين والتقرب من المسلمين والمسيحيين الشرقيين واليهود. كذلك يخبرنا هيلت أن روس كان مشغوفًا باللهجة العامية، وكان يحب التعامل مع السكان البسطاء؛ ولذلك فهو يعد مثالاً لوالن(٩).

أما فيما يتعلق بأوراق روس ومذكراته عن هذه الرحلة فلم ولن نعرف عنها شيئًا أبدًا؛ لأن الروايات تخبرنا أن المذكرات أُرسلت إلى دير الرهبان الفرنسيسكان في دمشق، ورغم البحث الشديد فلم يتم العثور عليها.

## نحو الشرق:

في ربيع عام ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) وبعد عودته من سانت بطرسبورغ طلب والن من مجلس الجامعة تأجيل رحلته لمدة عام، ففي خلال هذا العام سيقوم بدراسة الطب؛ لكي يعمل طبيبًا في الصحراء. كلفت الجامعة والن قبل السفر بمهام عديدة فكان عليه أن يرسل مستحضرات تشريحية (خاصة بعلم التشريح) مثل الجماجم، والهياكل العظمية الخاصة

(9) A. L. M. Hjelt, op. cit., pp.1-44

بالحيوانات... كما كان عليه أن يحصل للمكتبة على مخطوطات عربية وكتب مطبوعة من القاهرة. وكان والن قد عمل أمينًا عامًا في المكتبة لمدة عام. وقد حصل والن من المجلس على ٣٠٠ روبل فضية للحصول على هذه الأشياء، على الرغم من أن بعض أعضاء المجلس رأوا أن فكرة إحضار كتب من القاهرة لا تفيد بشيء، وعدّ بعضهم الآخر أن مبلغ ٣٠٠ روبل كثير جدًا، أما والن فقد عدَّ المبلغ ضئيلاً جدًا.

كان والن لا يزال يتمنى إلى آخر لحظة قبل السفر أن يذهب إلى مصر مع معلمه الطنطاوي، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق. على أي حال في شهر يوليو عام ١٨٤٣م (جمادى الآخرة ١٢٥٩هـ) حضر الطنطاوي إلى هلسنكي عن طريق تالين (عاصمة استونيا)، القريبة من هلسنكي، لوداع والن وكان معه دي مايسون ١٨٠٧-١٨٧٣م (١٢٢١-١٢٨٩هـ) المدرس بالمعهد الشرقي، وهكذا قضى والن الأيام العشرة الأخيرة قبل سفره مع صديقه المصري، وفي ٢٨ يوليو (٢ رجب ١٢٥٩هـ) وبعد تأخير طويل رحلت سفينة والن وكان الطنطاوي آخر مودعيه، وتمنى له رحلة سعيدة[١٠].

ذهب والن إلى هامبورغ، باريس، مرسيليا ثم إلى إسطنبول التي وصل إليها في ٢٥ نوفمبر (٤ ذي القعدة ١٢٥٩هـ). وقد قضى هناك أسبوعين ثم ركب سفينة فرنسية إلى الإسكندرية ملتقى الشرق والغرب ووصل إليها في ١٤ ديسمبر ١٨٤٣ (٤ ذي الحجة ١٢٥٩هـ). قضى والن في الإسكندرية خمسة

(10) Kaj Öhrnberg, G. A. Wallin, 2007, p. 53.

أسابيع بشخصيته الأوروبية المسيحية العادية، ثم حدث الكثير في يومي ٢١ و ٢٢ يناير ١٨٤٤م (١ و ٢ المحرم ١٢٥٩هـ) ففي اليوم الأول خلع والن الزي الأوروبي وحلق شعره واستحم في حمام عربي ثم ارتدى الثوب المحلي. في اليوم التالي أبحر عبر النيل إلى القاهرة التي وصل إليها في ٢٩ يناير (٩ المحرم). وهناك ظهر والن بشخصية جديدة وسمّى نفسه "ولي"، وادّعى أنه قادم من بخارى من آسيا الوسطى الواقعة تحت سيطرة القيصر الروسي، وعلاوة على ذلك فقد وصل إلى القاهرة راكبا حمارًا.

### القاهرة:

كانت القاهرة هي منطقة الإمداد والوطن بالنسبة لوالن خلال السنوات الخمس والنصف التالية، فقد قام بثلاث رحلات إلى الصحراء من القاهرة، وهناك أصبح هذا المتعلم الأكاديمي القادم من الشمال مسلمًا، وكانت القاهرة لا تزال في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي (منتصف القرن الثاني عشر الهجري) مركزًا حضاريًا واقتصاديًا وروحانيًا للعالم الإسلامي المترابط الذي كان يمتد مجاله من المحيط الأطلنطي حتى جزر الهند الشرقية. قضى والن في مصر ثلاث سنوات عاش منها في القاهرة وحدها سنتين ونصف.

بعد عودة والن من صعيد مصر بدأ في التحضير لرحلة شبه الجزيرة العربية، وكان هذا يعني أن يجهز المتاع والأدوية والأشياء المتعلقة بتأجير الجمال، أما مظهره ولغته العربية

فلم يحمل والن لهما همًا، فقد عدَّه الناس شرقيًا ومسلمًا. إلى جانب ذلك ابتكر والن لنفسه لغة سرية لكتابة مذكراته في الصحراء دون خوف أن ينكشف محتواها للغرباء؛ فقد كتب والن مذكراته باللغة السويدية، ولكن بالحروف العربية، وقد كتب في هذا الوقت إلى بلده أنه مستعد لرحلته الأولى إلى الصحراء، وهو متفائل بالنجاح.

## رحلة الصحراء الأولى:

لم يكن من المتوقع أن تُنفَّذ رحلات والن كما خطط لها في سانت بطرسبورغ، وقد أقر والن بذلك بعد قدومه مباشرة إلى القاهرة؛ ففي عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي (منتصف العقد الخامس والسادس من القرن الثالث عشر الهجري) حاول محمد علي باشا حاكم مصر أن يضم شبه الجزيرة العربية إلى سلطته. ولذلك أخبر بعض الناس والن أنه ليس من الحكمة أن يذهب إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر كما كان مخططًا من قبل؛ وذلك لأنهم كانوا يتعاملون بشك وحذر في شبه الجزيرة مع كل من يأتي إلى هناك من مصر؛ ولهذا السبب كان من الأفضل الذهاب عن طريق الشمال كما فعل والن فعلا. وعلى الرغم من ذلك شكّوا أن والن كان جاسوسًا مُرسلاً من قبل محمد علي باشا! وبحسب الخطة الجديدة التي وضعها والن فإنه سيصل إلى العقبة بعد خمسة عشر يومًا، وتعد الرحلة آمنة حتى العقبة، أما بعد ذلك فستتحكم الظروف في سير الرحلة. "وعمومًا سأحاول اختراق الصحراء من هناك

مباشرة إلى الجوف المشهورة بأغانيها وشعرها. وسوف أبقى هناك فترة طويلة، ثم أذهب إلى سدير التي تضم آثارًا تشُد الانتباه، ثم أمرّ على جبل شمر ثم إلى الدرعية، وبذلك أكون قريبًا من الخليج العربي ثم أذهب إلى البصرة التي تعد أول مناطق رحلتي الرئيسة". ولكن والن اكتشف أن هذه الخطط التي وضعها في أماكنها لن تتحقق، وتحققت رحلته الأولى للصحراء بطريقة مختلفة عما كان يفكر فيه.

ودّع العديد من الأصحاب القاهريين والن عند أبواب القاهرة في ١١/٤/١٨٤٥م (٤/٢/١٢٦١هـ)، وهناك انتظره بدويٍ ومعه جملان، وكان هذا البدوي قد وعد أن يكون دليلاً لوالن حتى العقبة، بعد ساعة واحدة من بداية الرحلة تراجع البدوي وسلّم والن إلى بدوي آخر لكي يوصله إلى العقبة.

كان اليوم الأول مليئًا بالمفاجآت السيئة والسعيدة أيضًا، فمن المفاجآت السعيدة أن ركوب الجمل لم يكن بالأمر الصعب الذي تخيله؛ فقد كان خائفًا جدًا من ركوب الجمل، وكان العديد من الناس قد أخبروه أن ركوب الجمل يحتاج إلى تدريب مسبق، ولكنه عندما ركب الجمل شعر كأنه شيء معتاد عليه. كان والن يتدرب على ترتيل القرآن على ظهر الجمل، وقد جعله هذا يهتز بجسده بنفس إيقاع حركة الجمل.

بعد أسبوع قام والن بتغيير المرشد البدوي مرة أخرى وتغيّر خط سير الرحلة فلن يمرّ على العقبة، وإنما سيذهب

مباشرة إلى الجوف عن طريق معان. قضى والن أربعة أشهر في الجوف قبل أن يكمل رحلته إلى حائل، التي وصل إليها في ٢١ سبتمبر (٢٠ رمضان). وكان والن أول رحالة أوروبي يعبر هذا الطريق ويذهب إلى حائل.

وقد عانى والن في الأماكن التي توقف فيها بعض الشيء، فكان يلتف حوله الناس ويمطرونه بالأسئلة وبطلب الأدوية ولكن هذه هي ضريبة مهنة الطب، وكان الناس يطلبون منه علاج المرضى. ومما لا شك فيه أن أدوات الطب الأوروبية التي استعملها والن أثارت الشك فيه. كما اتضح لوالن أن اسم ولي لم يكن مناسبًا؛ لأنه يُطلَق عامة على الأولياء، ولذلك غير اسمه إلى والي بين البدو، ولكنه لم يكن اختيارًا جيدا؛ لأن والي اسم من أسماء الله الحسنى. وأراد والن أن يقنع البدو أن هذا الاسم شائع الاستعمال بين قومه، ولكن البدو أشاروا عليه أن يستخدم اسم عبدالوالي.

كانت حائل هي عاصمة الأمير عبدالله بن رشيد، لم تكن في حائل أماكن سكن للمسافرين؛ لأنها لم تكن مكان حج، ولكن والن كان يعرف أنه يمكن أن يسكن في مقر ضيافة الأمير فقد كان حقًا لكل مسافر أن يبيت أو يبقى كما يشاء في ضيافته، فهذا هو الكرم العربي. قضى والن هناك ستة أيام، وكان الطعام يُقدَّم مرتين عند شروق الشمس وغروبها لنحو مئتين من العرب القادمين من كل مكان. كان والن ينام في المسجد وعندئذ قابل درويشًا طائفًا من بلاد فارس وصاحَبه وأجّرا معًا غرفة وانتقلا إليها. كانت حياة والن في

حائل كالحياة الملكية بالمقارنة بالشهور الأربعة التي قضاها في الجوف؛ ففي الجوف كان يعيش على التمر والعصيدة، أما في حائل فكان لحم الغنم والخضروات والمياه النقية يزيد من إحساسه بالراحة في هذا البلد، ونسي والن العالم كله وقضى هناك ما يقارب ثلاثة شهور سعيدة لدرجة أنه فكر مرات عديدة في اقتراح أصحابه من حائل أن يعيش معهم إلى نهاية العمر. ولم لا فقد عرض عليه واحد من أشهر شعراء نجد أن يبقى في حائل ويتزوج من ابنته البالغة من العمر ١٥ عامًا التي كانت كما قال والن "من أرهف ظباء العرب"، ولكن لم يشأ رب العباد، وهنا اكتشف والن قلة ما يحمله من مال، وكان لابد له من قطع الرحلة والتوجه إلى القطيف.

حاول الدرويش الفارسي أن يقنع والن بأن يأتي معه إلى مكة للحج، ولكن والن لم يرد؛ لأنه خاف أن يغامر بهذه الرحلة إلا إذا كان مستعدًا الاستعداد الكامل لها، ولكنه غيَّر رأيه عندما قدمت قافلة الحجاج من بغداد في منتصف نوفمبر (ذي القعدة ١٢٦١هـ) والتي كانت تضم حجاجًا شيعة كالغالبية العظمى من سكان بلاد فارس، وضمت القافلة ١٥٠٠ بعير، وقرر والن أن يذهب معهم إلى المدينة. رحلت القافلة في ٢٠ نوفمبر (٢١ ذي القعدة ١٢٦١هـ)، وبعد ثمانية أيام (٨٥ ساعة من السير) وصلت القافلة إلى قبر الرسول محمد ﷺ. حينئذ اختبأ والن في وسط الحجاج لكي لا يدفع الرسوم الباهظة لأنه كان دون مال، وفي المدينة زار والن قبر الرسول وأبي بكر وفاطمة، وقد عدّ والن الذي كان قد رأى

مساجد القاهرة وإسطنبول العظيمة، أن مسجد الرسول ﷺ كان من أعظم وأجمل المساجد التي رآها على الإطلاق.

كان والن ينوي أن يذهب مباشرة من المدينة إلى ينبع على شاطئ البحر الأحمر، ولكن هذا الطريق لم يكن مأمونًا في فترة الحج، وذلك كمعظم الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة في ذلك الوقت، وقرر أن يستمر مع القافلة حتى مكة. غادرت القافلة المدينة في ٢٩ نوفمبر (٣٠ ذي القعدة) ووصلت إلى مكة في ٧ ديسمبر ١٨٤٥م (٨ ذي الحجة ١٢٦٢هـ)، "وكان أول واجباتنا أن نقوم بالشعائر الخاصة بالحجاج في المسجد الحرام... توقفنا أمام باب المسجد في فناء مربع ثم قلنا: أشهد أن هذا الحرم حرمك، وأن هذا البيت بيتك. ثم ذهبنا إلى مقام إبراهيم وصلينا ركعتين، ثم طفنا حول الكعبة سبع مرات... وفي كل مرة وصلنا إلى الركن الجنوبي للكعبة مسحنا بأيدينا على الكعبة ثم مسحنا وجهنا بأيدينا، في المرة السابعة والأخيرة توقفنا عند الركن الشرقي الموضوع فيه الحجر الأسود. كان هذا المكان ممتلئًا بالناس، وكان الجميع يريد أن يقبّل هذا الحجر الأسود الصغير المعطر، وبجانب باب الكعبة أي في الجانب الشمالي الشرقي من البناء قريبا من الحجر الأسود، كان يقف مجموعة من العبيد السود، وكان مع كل واحد منهم عصا يلوح بها لإبعاد الناس عندما يصبح الازدحام غير مطاق، ومع هذا نجحت في تقبيل الحجر الأسود دون أن تصل إليّ ضربات العصا... ثم ذهبنا بعد ذلك إلى بئر زمزم، وأعطينا لرافع المياه بعض النقود،

ليرفع إلينا الماء وصببنا على أنفسنا وعلى ملابسنا بعضًا من هذه المياه؛ وبهذا أتممنا الشعائر الأولى في بيت الله. بعد ذلك كان علينا أن نقوم بالسعي بين جبلي الصفا والمروة القريبين من المسجد، ثم يكون السعي بهرولة بطيئة مع ترديد بعض الأقوال أو الأدعية أو التزام الصمت، ويكون الجري سبع مرات مع الوقوف عند كل جبل، فعند كل جبل سُلّم، وهناك يتم ترديد بعض الأدعية أو التزام الصمت وسماع الآخرين إذا لم يكن الإنسان يعرف هذه الأدعية. كان الازدحام في هذه المنطقة شديدًا؛ ولذلك يجب أن يكون المرء حذرًا لكي لا يقع... وبهذا تكون الشعائر الأولى قد تمت...

في مساء اليوم التالي ٨ ديسمبر (٨ ذي الحجة) يذهب الحجاج كل على حدة إلى منى ويقضون الليل هناك. ومنى سهل طويل يقع بين الجبال وعلى أطرافها مكان يشبه المدينة ولكنه في الحقيقة مكان مهجور يُعمر فقط بالحجاج أيام الحج. وفي اليوم التالي يذهب الجميع إلى سهل مكشوف ومتساو يقع به جبل عرفات. كان هذا السهل جميلاً جدًا وفي قمةً خضرته الخريفية... وفي منتصف النهار صعدنا إلى منطقة رملية على مقربة من جبل عرفات ومكثنا هناك حتى صلاة العصر ثم ذهب كل واحد على ظهر جمله إلى قاع الجبل وجلس دون حركة في تلك الصحراء حتى غروب الشمس. وعرفات جبل منخفض من الجرانيت وله قمتان تغطيهما حجارة متلاصقة صغيرة وكبيرة، وفي أعلى الجبل منبر يشبه البرج يلقي الإمام من عليه الخطبة للحجاج مع أن

الكثير منهم لا يسمع شيئًا من الازدحام. كانت هذه هي ذروة الحج ومن أجلها يأتي الناس من أبعد البلاد، ويسمى هذا اليوم بيوم الوقوف أو وقفة عرفات.

وأخيرًا غربت الشمس وتم الإعلان عن ذلك بطلقة مدفع، وبدأ الجميع في رحلة العودة دون أي نظام. ولحسن الحظ لم يستمر رمح الجمال إلا أقل من ساعة، حيث وصلنا إلى المزدلفة إلى مخيم مبيت الحجاج، وهناك جمع كل واحد لنفسه ٧٠ حجرًا صغيرًا ونام، وفي صباح اليوم التالي رجعنا إلى منى، وأول ما فعلناه أن ذبحنا شاة، وأعطينا لحمها للفقراء، ثم حللنا الإحرام وارتدينا ملابسنا، وبدأ السوق بعد ذلك، وكان الذهاب إلى السوق يعد الهدف الرئيس للعديد من الناس، وقضينا في مني أيام ١٠ و١١ و ١٢، وكانت هذه الأيام مملة جدًا لي؛ لأنه لم يكن هناك خيمة، ولذلك أحرقتنا الشمس نهارًا، وهطل علينا المطر ليلاً. ليس هذا فحسب بل عم المكان رائحة كريهة وقذارة، والسبب ذبح الأضاحي، ولا يمكن لأحد تخيل هذه الرائحة إلا الموجودين فيها. في ١٢ ديسمبر (١٢ ذي الحجة) اتجهنا إلى مكة".

لم تكن رحلة الحج خالية من المخاطر فقد كانت مغامرة للذين يخافون من انكشاف حقيقة دينهم أو حتى بالنسبة للناس العاديين. ففي بعض السنوات المظلمة في القرن الثامن عشر مات العديد من الحجاج. وفي عام ١٨٢٤م (١٢٣٩هـ) مات نحو ٤٠٠٠ حاج من الحر والعطش، وبعد ذلك بعامين دفن ١٢٠٠٠ حاج في أحضان الصحراء. وبعد عام واحد

فقط من العام الذي حج فيه والن مات ٥٠٠ حاج و١٢٠٠ حصان و ٩٠٠ جمل في طريق العودة من المدينة إلى دمشق.

انتقد الناس فيما بعد والن على عدم استفاضته في وصف الحج، وقد علل والن قلة مذكراته بخوفه من انكشاف الحقيقة. ولكنه يوضح لنا أنه قد وصف زيارته لمكة في خطابه المرسل إلى فنلندا(١١).

كان هذا باللغة السويدية، أما الذين لا يعرفون السويدية فلم يعرفوا إلا ما كتبه والن في جملتين باللغة الإنجليزية عن الحج في مقاله(١٢)، وهنا يجب أن نتذكر أن بوركهارت كان قد وصف رحلته للحج في كتاب ضخم يبلغ ٥٠٠ صفحة. على أي حال كنا نتمنى من والن أن يعطي تفاصيل أكثر عن رحلته من حائل إلى المدينة، إذ كانت القوافل القادمة من بلاد فارس تعبر عن طريق فيد، ولكن في عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ) استراحت القافلة في حائل، ولا يوجد لدينا من قبل وصف للطريق من حائل إلى المدينة.

لم تُعجب والن الحياة في مكة أيام السوق ولا سيما أن جعبته كانت خالية من المال؛ لذلك أراد أن يسرع إلى البحر الأحمر، ولكنه كان راضيًا عن رحلته للحج عمومًا بالرغم من

---

(١١) وصف والن حجه في رسالة إلى أستاذه غيتلين مؤرخة في ٢٩/٨/١٨٤٦م. انظر:

Kaj Öhrnberg, 2007, pp. 437-447.

(12) Georg August Wallin, Narrative of a Journey From Cairo to Madina and Mecca..., in 1845, The Journal of Royal Geographical Society, No. 24, 1854, pp. 115-207.

أنه لم يكن مستعدًا لها، وقد اقتنع والن أنه بجانب الروح الطيبة التي سادت الرحلة وسيره مع ثلاثة أو أربعة من الأوروبيين الذين تجرؤوا على الذهاب للحج فقد كان للرحلة فوائد عملية أيضًا ستفيده في الرحلات القادمة.

على أي حال كان يمكن لوالن استخدام لقب حاج في العالم الإسلامي كله، وفي ١٥ ديسمبر غادر والن مكة نحو جدة، ومن هناك أبحر إلى مصر ووصل إلى القاهرة في ١٤ مارس ١٨٤٦م (١٧ ربيع الأول ١٢٦٢هـ).

## رحلة الصحراء الثانية:

أخذ والن يفكر بعد عودته إلى القاهرة في كيفية تمويل رحلته في الشرق الأوسط حتى نهاية عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ)؛ فقد كان يعتقد أن المنحة التي حصل عليها ستكفيه حتى عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) أو ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، ولكن بعد وصوله إلى مصر بعدة شهور وفي أبريل ١٨٤٤م (ربيع الأول ١٢٦٠هـ) كتب إلى غيتلين أنه لن يقدر على عمل شيء في هذه الفترة القصيرة، وطلب منه بحث إمكانية تمويل رحلته للسنوات الثلاث القادمة ١٨٤٦-١٨٤٩م (١٢٦٢-١٢٦٥هـ) في الشرق الأوسط. ثم كتب إلى غيتلين مرة أخرى في سبتمبر ١٨٤٤م (شعبان ١٢٦٠هـ) وأوضح أنه إذا لم يحصل على مساعدة من الجامعة فيمكن لعشرة من أصدقائه أن يجمعوا له فيما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ روبل فضية. وهذا المبلغ سيكفيه حتى نهاية عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) والتي سيتم فيها التقديم على المنحة المالية لجامعة هلسنكي التي تُمنَح كل خمس

سنوات. وعندما رجع والن من رحلة الصحراء الأولى وجد في انتظاره ١٠٠٠ روبل فضية أرسلها إليه غيتلين[١٣].

كان والن قد كتب في الخطاب الذي أرسله في سبتمبر أن رحلاته القادمة ستتم في أعوام ١٨٤٧-١٨٤٨م (١٢٦٣-١٢٦٤هـ)، وكان والن قبل رحلته الأولى للصحراء يرى أنه من الحكمة أن يذهب في أعوام ١٨٤٧-١٨٤٨م (١٢٦٣-١٢٦٤هـ) إلى شرق شبه الجزيرة وجنوبها ليبحث الآثار واللغة الحميرية. وكان والن قد وقع في خطأ باعتقاده أن اللهجات العربية في الجنوب تمثل تطور اللغة العربية في مراحلها الأولى. وقد أكدت الرحلة الأولى ذلك. وفي خطابه لغيتلين في أواخر مارس ١٨٤٦م (ربيع الثاني ١٢٦٢هـ) أوضح والن أنه يريد الذهاب في المرة القادمة إلى اليمن القاطنة في قلبه، أو إلى الأجزاء الشرقية من نجد، وكذلك إلى بغداد والبصرة. من بغداد يمكن أن يذهب إلى عمان والمهرة المجهولتين تمامًا. وقد كتب والن في الأول من أغسطس ١٨٤٦م (٩ شعبان ١٢٦٢هـ) في طلبه المقدم للحصول على منحة جامعة هلسنكي عن هذه الخطط المحببة إليه، ولكنها كانت تعد خططًا غير واقعية.

أرسل والن طلبه للحصول على منحة جامعة هلسنكي في الأول من أغسطس من القاهرة، أي قبل انتهاء ميعاد التقديم في آخر شهر أكتوبر ١٨٤٦م (ذي القعدة ١٢٦٢هـ) بوقت كاف، وليتأكد والن من وصول طلبه، في وقت كان البريد فيه

(13) H. Holma, op.cit., p.8.

غير مضمون وبطيء، أرسل نسخة من طلب التقديم على المنحة في يوم ٢٩ من الشهر نفسه. ومع ذلك لم يصل أي من الخطابين حتى نهاية عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ)، وبالصدفة المحضة بقي الخطابان في مخزن وزارة الخارجية في سانت بطرسبورغ ووصلا إلى هلسنكي في فبراير ١٨٤٧م (صفر ١٢٦٣هـ)، ومن حسن حظ والن أن مجلس الاختيار للمنحة تشكك في عدالة التقديم إلى المنحة، وأعلن أن التقديم سيبدأ من جديد وسوف يستمر حتى نهاية فبراير ١٨٤٧م (صفر ١٢٦٣هـ)، وبذلك حصل والن على فرصته.

يصف والن في طلبه رحلته الأولى في الصحراء، ويعتقد أنه تعرف على اللغة وطباع الناس بصورة أعمق، وأنه قد حصل على معلومات جغرافية، وعلى معلومات في مجالات أخرى مفيدة جدًا وغير معروفة من قبل. ومع هذا كله فقد كانت هذه هي المحاولة الأولى. يقول والن: "أما بالنسبة للرحلات القادمة التي أريد عملها في السنوات القادمة فغايتي الرئيسة هي الاتجاه إلى المناطق الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة وكذلك إلى المناطق الداخلية لنجد... ويوجد في المهرة، التي لم يزرها أي أوروبي من قبل حسب ما أفادني به القنصل الفرنسي فرسنل، العديد من الآثار والنقوش باللهجة الحميرية القديمة. ولكي أقوم بهذه الرحلات لا بد أن أنقل محل سكني من مصر إلى البصرة. فمن البصرة أستطيع الذهاب إلى هذه الأماكن عن طريق الخليج العربي إلى جانب أن العرب في الجزيرة كانوا يشكّون

في كل من يأتي من مصر، ويعرفون أن هناك حرية في العقيدة في مصر، وهم لا يحبون ذلك كما لا يحبون أي شيء يختلف عن عقائدهم. ولهذا السبب سأذهب عن طريق القدس إلى دمشق ومن هناك عبر الصحراء عبر مناطق البلقاء ونقرة الشام المجهولة إلى بغداد والبصرة. وهناك سوف أزور أولاً منطقة الأحساء المشهورة وكذلك حدود منطقة نجد، ولا تزال هذه المناطق مشهورة بغناها وبمهارة أهلها. ومن هناك سأستمر إذا أمكن عبر الصحراء الكبرى إلى عمان ثم إلى المهرة. أما إذا استحال ذلك فسأرجع إلى البصرة وأبحر من هناك إلى أحد ميناءي عمان. ولا بد لي أن أبقى فترة طويلة في المهرة ولا يمكن لي تحديد هذه الفترة مسبقًا. من هناك سأذهب عبر مرتفعات الأحقاف إلى صنعاء، لكي أكمل المعلومات التي وصلت إلينا من أرناود وورِيده (Arnaud & Wrede) خلال رحلتهم إلى اليمن في العام الماضي ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ). ثم أستمر في الطريق، حسب المعلومات التي حصلت عليها، في الصحراء عبر وادي الدواسر إلى الرياض التي يوجد فيها رجل نجد الإمام فيصل. ومن هناك أتبع طريق الحج إلى الحجاز، وبهذا أكون قد زرت أهم مناطق شبه الجزيرة العربية عبر هذه الطرق التي تشبه المثلث. ويمكن تحديد مكانة هذه الأماكن لبعضها دون الحاجة إلى علم الفلك. بافتراض أن القيام بهذه الرحلات سوف يأخذ كل الوقت والمال المحدد من الجامعة القيصرية، فسوف أضطر للرجوع إلى الوطن بعد وصولي إلى الحجاز"(١٤).

(14) Kaj Örnberg, 2007, pp. 448-450.

كان والن قد عرف بعد رحلته الأولى إلى الصحراء أنه من الصعب تحقيق الخطط المرسومة للرحلة في شبه الجزيرة العربية. ولتوضيح ذلك أضاف والن في طلبه للمنحة أنه أينما ذهب فإنه يجد أماكن مغمورة وقبائل بدوية تعطي معلومات أكثر عن التاريخ المبكر لهذه المنطقة.

هنا يجب الاعتراف أنه لو كانت خطة والن تحققت لكان قد أصبح أعظم الباحثين في شبه الجزيرة العربية، وكان سيستحق هذا على ذهابه من الأحساء إلى عُمان عن طريق "الصحراء الكبرى". فهذا الطريق هو طريق الربع الخالي المخيف الذي كان الإنجليزي بيرترام توماس (Bertram Thomas) أول أوروبي يعبره من الجنوب إلى الشمال في أعوام ١٩٣٠-١٩٣١م (١٣٤٨-١٣٤٩هـ)، في الوقت الذي كان يستعد فيه توماس لرحلته كان هناك شخص إنكليزي آخر اسمه جون فيلبي (St. John Philby) يستعد في الرياض للرحلة نفسها. ولكن فيلبي أجَّل رحلته بعد معرفته بنجاح رحلة توماس إلى يناير ١٩٣٢م (شعبان ١٣٥٠هـ) حيث عبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب.

في هذه المرة تقدم اثنان فقط بطلب الحصول على المنحة هما والن والطبيب فون فيلبراند. وفي هذه المرة أُعطيت المنحة إلى الطبيب بغالبية ١٠ إلى ٧ أصوات، على الرغم من تقدير المجلس لطلب والن. وقد سُوِّغ هذا القرار بأن والن كان قد حصل على هذه المنحة سابقًا، وليس من المعقول أن يحصل عليها مرة أخرى؛ لئلا يحصل هو وحده على منحة الجامعة القليلة عشر سنوات متتالية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

يجب هنا أن نذكر مساندة الأستاذ نرفاندر (Nervander) لوالن، فقد قال: إن دراسة وبحث والن في الجزيرة العربية تعادل في أهميتها الدراسات التي تمت في إفريقيا أو اكتشاف الطريق الجنوبي الشرقي، ثم إن ما حققه والن بالفعل يعادل ما حققه نيبور وفورسكال وبوركهارت. وفي العام نفسه تم الإعلان عن فتح باب التقديم لمنحة الإسكندر، وتقدم اثنان أيضًا بطلب الحصول على هذه المنحة، والن وفريدرك نيلاندر (Fredrik Nylander) عالم النبات. قدمت والدة والن طلبه الذي كان به خطة الرحلة التي قدمها إلى جامعة هلسنكي نفسها، وفي هذه المرة تم إعطاء المنحة لوالن بغالبية كبيرة ١٦ مقابل صوت واحد.

لم يكن والن يعلم شيئًا عن هذا كله، فقد اعتقد أن طلبه لم يصل إلى هلسنكي، وخطط والن أن يقوم برحلة قصيرة إلى الصحراء، حيث يذهب أولاً إلى دير سانتا كاترين في سيناء. وهناك حسب الأحوال سيذهب إلى مدائن صالح أو إلى البتراء ووادي موسى. ولم يخطط لعمل أي شيء آخر في هذه الرحلة، وكان ينوي العودة إلى القاهرة في موعد أقصاه آخر مارس ١٨٤٧م (ربيع الثاني ١٣٦٣هـ)، وكان يتمنى عندئذ حصوله على رد من غيتلين "يكون أو لا يكون". كان والن يعد هذه الرحلة للنقاهة والسياحة، ولكنها كانت رحلته الثانية للصحراء لزيارة الأماكن المقدسة أكثر من أي شيء آخر.

## الرحلة الثالثة:

أرسل والن رسالة من حجز الإسكندرية إلى هلسنكي بتاريخ ٨ يونيو (٢٤ جمادى الآخرة)، وكانت الرسالة قصيرة، على غير العادة فقد كان من الواضح أنه مكتئب وغاضب وكان يتساءل: ماذا يفعل؟ فقد أصبح بدون مال ولا يكفي ما معه من مال حتى للرجوع إلى بلاده. وكان والن لا يزال يعتقد أن طلبه للحصول على المنحة لم يصل إلى هلسنكي، في الوقت نفسه لم يرد والن أن يرجع إلى بلده في ذلك الوقت، ولكن ربما يكون الحل الوحيد لمشكلته هذه هو أن يعيش على أنه درويش، ويعتمد على عطف وكرم الناس. ولكن بعد عودته إلى القاهرة بيومين كانت فرحته كبيرة فقد استلم خطاب غيتلين الذي أخبره فيه بما حدث لطلبه للمنحة، وأيضًا بالقرار السعيد بالحصول على المنحة الأخرى.

كان والن ينوي أن يبدأ رحلته الثالثة في برد الشتاء، وفي أثناء تحضيره لهذه الرحلة زار بني سويف وواحة الفيوم المشهورة بعنبها وورودها. ولكنه على أي حال قضى في القاهرة الجزء الأعظم من وقته في التحضير للرحلة، وعلى غير العادة احتاج والن إلى جواز سفر في هذه الرحلة، فقد بدأ حاكم مصر محمد علي باشا في استخدام هذه الطريقة التي كرهها والن.

وبدأ العصر الذهبي الذي كان يتنقل فيه المرء بحرية في البلاد الإسلامية يقترب من نهايته. وكان جواز سفر والن باسم عبدالمولى، فقد سماه بهذا شيخ من الرياض كان يعيش

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

في القاهرة[١٥]؛ لأنه رأى أن اسم عبدالوالي غير مناسب في نجد.

اعتقد والن أن ما معه من مال ربما سيكفيه لمدة عامين في الصحراء، وكانت خطة رحلته لا تختلف في مضمونها عن الخطة التي أرسلها إلى هلسنكي، حيث سيكون مكان التوقف الأول في ميناء المويلح، ومن هناك سيتبع طريق القوافل إلى تيماء عبر تبوك. وكان يريد الذهاب من هناك مرة أخرى إلى حائل ليرى أصدقاءه القدماء قبل أن يذهب إلى الرياض.

وكان مع والن خطاب توصية من الشيخ المذكور آنفًا إلى الإمام فيصل بن سعود في الرياض، كان والن يأمل أن يستمع إلى الخطب الدينية في مسجد الرياض. وكان ينوي أن يقضي صيف ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) في الرياض، كما كان ينوي أيضا أن يقوم برحلة علمية إلى الربع الخالي، وكانت هذه الفكرة غير واقعية وتشبه إلى حد كبير الفكرة التي عرضها في سانت بطرسبورغ في الذهاب إلى مكة لتعلم العربية. ومن هناك سيذهب عن طريق عمان إلى المهرة، فقد كان يتمنى أن يقضي على شاطئ الجزيرة العربية الجنوبي وقتًا طويلاً حتى نهاية صيف ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ)، بشرط ألا يكون ما معه من مال قد انتهى، وسوف يذهب بعد ذلك مباشرة إلى عدن ومن هناك على متن مركب إنكليزي إلى مصر.

(١٥) هو الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقد كان مقيمًا في القاهرة في تلك الفترة.

وقد أخبر أصدقاءه ألا يقلقوا عليه إلا في حالة عدم سماعهم شيئًا عنه حتى أواخر عام ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ)، وقد تحقق شكّه في تحقيق خطته للرحلة التي كان قد وضعها من قبل، فلم يتحقق من هذه الخطة إلا الأجزاء الأولى حتى حائل.

أرسل والن خطابا إلى غيتلين في ١٤ ديسمبر ١٨٤٧م (٧ محرم ١٢٦٣هـ) يصف فيه شعوره في الليلة السابقة للرحلة: "عندما ينوي البدوي أن يذهب إلى رحلة طويلة فإن أول ما يطمئن عليه هو سنام الجمل، فإن كان كبيرًا وممتلئًا وإن ضغط عليه من مختلف الجوانب يكون مشدودا اطمأن إلى نجاح رحلته. علاوة على ذلك يكون ضميره مستريحًا ومفعمًا بالأمل؛ لأنه يعرف عندئذ أن راحلته ستتحمل المشاق حتى إذا كانت الصحراء خالية من الزرع والماء، فالجمل يعيش على ما خزنه في أيام الخير الوفير في سنامه. وسوف يحتاج كل شخص إلى سنام إذا أراد أن يغزو الصحراء وبالطبع فإن لكل شخص سنام خاص به. وأنا مشتاق إلى الصحراء من كل قلبي... وشعوري الآن مشابه لسنام الجمل، فأنا مستعد للقيام برحلة طويلة إلى الصحراء"(١٦). غادر والن القاهرة في اليوم نفسه مع المرشد البدوي الذي كان قد أوصله إلى دير سانت كاترين منذ قرابة عامين.

قضى والن في المويلح ثلاثة أسابيع، ومن هناك ذهب إلى الصحراء على عجل وزار كل القبائل البدوية التي قابلته في

(16) Kaj Öhrnberg, 2007, p462.

الطريق. كان هناك جماعة مرافقة لوالن مكونة من ستة رجال وجملين، وادعت هذه الجماعة أنها تقوم بأعمال مهمة، ولكن الهدف الرئيس كان الاستمتاع بكرم البدو وأكل لحم الغنم كما يشتهون. وقد قام طبيب الجماعة عبدالمولى بواجبه الطبي عندما اقتربت الجماعة من مخيم الشيخ سليم أعظم أشخاص المنطقة؛ فقد كان الشيخ مريضا، وعندما علم أن والن طبيب أرسل في طلبه. كان الشيخ يبلغ الخمسين من عمره، وعندما رآه والن أقر أنه مريض بمرض في الصدر، وقد قام والن برعاية الشيخ الذي كان على مشارف الموت بتنظيم طعامه فقط. مات الشيخ سليم في ١١ مارس (٦ ربيع الثاني)، وقد حاولت أرملته أن تزوج ابنتها لوالن، ولكن والن رحل عندئذ إلى تبوك.

كانت تبوك مدينة صغيرة ذات مئة بيت من الحجر، فيها حامية عسكرية مكونة من سبعة رجال. وكانت تعد مجرد استراحة صغيرة لسالكي طريق الحج من سوريا. وبناء على الظروف المحيطة قضى والن في هذه المدينة الصغيرة ثلاثة أسابيع، فقد اضطر أن ينتظر البدوي الذي سوف يرافقه إلى تيماء.

وأخيرًا وفي بداية أبريل (جمادى الأولى ١٢٦٤هـ) وصل بدوي اسمه عقيل من قبيلة بلي، ووعد أن يرافق والن، وتوقفا في الطريق عند مخيم عائلة عقيل، وهناك أتت بنته عمشاء التي كانت تبلغ من العمر ١٧ أو ١٨ عامًا لتسأل الطبيب عن بعض النصائح الطبية. كانت هذه الفتاة قد تزوجت من ابن

عمها منذ ثلاث سنوات، وكان زوجها يريد أن يتزوج من امرأة أخرى لأن عمشاء لم تلد في هذه السنوات الثلاث إلا بنتًا واحدة فقط. كانت عمشاء في نظر والن من أجمل النساء التي رآها، ولكن الأجمل عنده كانت امرأة نوبية من صعيد مصر وكان يتذكرها دائمًا باشتياق وحنين. اقترح والن على عمشاء أن تترك زوجها وتهرب معه إلى مكان آخر؛ لكي يُجبر عرب هذا المكان الزوج على الطلاق. بعد ذلك يعود والن معهَا ويتزوجها ويعيشان مع القبيلة في سلام. وكتب قائلاً: "كان التداعب بالرومانسية في الصحراء شعورًا لطيفًا، ووضعت لهذا التخيل نهاية مناسبة: ماذا يمكن أن أفعل في أوروبا التي أصبحت غريبًا عنها؟ يمكن لي أن أعيش هنا إلى النهاية مع أبناء الصحراء، وأحاول الحصول على إبل وقطيع من الغنم، وأستمتع بحياة الصحراء البسيطة بعيدًا عن الحياة الترفيهية والزهو والتحضر الزائف". ولكن والن تعلم من رحلاته أن من ولد في الصحراء وترعرع فيها هو فقط من يمكنه أن يعيش فيها لفترة طويلة، وأن يتحمل مناخها. ولذلك قرر بقلب مكسور أن يستمر في رحلته، وغادر في ١٦ أبريل (١٣ جمادى الأولى) إلى تيماء. وكان في الجماعة التي يقودها عقيل هذه المرة تسعة أشخاص وستة جمال، وكان هدفهم هو القيام بغزوة بعد أن يتركوا والن في تيماء. وكان لوصول والن مع هذا الجمع آثاره، فقد انتشرت شائعة تقول بأن والن حضر ليشتري خيولاً لعباس باشا حفيد محمد علي باشا، وبالصدفة وبعد ساعات قليلة من وصول والن إلى تيماء في ١٩ أبريل (٢٢ جمادى الأولى) وصل إلى هناك

أيضًا عبد من عبيد عباس باشا اسمه بشير، كان هذا العبد قد وصل من حائل ومعه قطيع من الخيل متجهًا إلى مصر. وجاء رجل من الجماعة المرافقة لبشير للتحدث مع والن ولمعرفة أغراضه، فهو الرجل الذي يقول عنه سكان المدينة إنه رسول عباس باشا. تضايق والن من هذه المقابلة وقرر الإسراع في رحلته إلى الأمام، وبعد قضاء نحو أسبوع في تيماء التي كانت مجهولة للأوروبيين استمر والن في رحلته عبر الصحراء نحو حائل.

وبعد يوم واحد فقط قابل والن ومرشده جماعة أخرى كانت تضم ستة عشر رجلاً من رجال الإمام فيصل بن سعود في طريق عودتهم من القاهرة، وكانوا قد انطلقوا في رحلتهم منذ سبعة أشهر من أجل إهداء خيول أرسلها سيدهم الإمام فيصل هدية إلى عباس باشا. وكان من بين الجماعة عبد أرسله عباس باشا إلى فيصل لكي يشتري من هناك الفرس التي كانت تعد الأفضل في الجزيرة العربية. وطلب والن من هؤلاء الرجال أن يذهب معهم إلى الرياض، فلم يكن والن يأمل أن يجد أفضل من هؤلاء للوصول إلى فيصل، ووافق البدو وقالوا: إنهم يعرفونه، وظن والن أنهم قد سمعوا عنه من البدو الذين عاش معهم، ولكن ظن والن تغير في حائل.

وصلت الجماعة إلى حائل في ٢ مايو (٢٩ جمادى الأولى) وأقام والن في نفس المنزل الذي أقام فيه أثناء زيارته الأولى في سبتمبر ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وبسبب مهنة الطب التي كانت لعنة عليه في بعض الأحيان، تأخر والن في مغادرة المدينة

أكثر من المدة المحددة ورحلت الجماعة الأخرى إلى الرياض بدونه. وكان في هذا التأخير إنقاذ لحياة والن، فبعد أن قضى والن بعض الوقت في المدينة وصلت إليه فتاة صغيرة كان قد تعرّف عليها في المرة السابقة لتحذره من ميعاد الذهاب إلى الرياض، فقد كانت واثقة تمامًا من أن والن سيُقتَل لو ذهب إلى فيصل؛ لأن فيصلاً ورجاله كانوا يستحقرون ويشكون في كل شيء قادم من مصر. ولكن المشكلة الكبرى أن الفتاة قالت: إن والن معروف على أنه مسيحي.

ظن والن أن انكشاف أمره يرجع إلى أنه طلب قبل رحيله من القاهرة خطاب توصية من محمد علي باشا عن طريق القنصل الروسي للذهاب إلى الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أن الطلب رُفض إلا أن هذه المعلومات على ما يبدو كانت قد وصلت إلى مسامع حفيده عباس باشا الذي أخبر بدوره الرجال المهمين في نجد عن هذا الموضوع. بعد تفكير عميق قرر والن أن يغير من خطته ويسافر مباشرة من حائل إلى بغداد(١٧).

لذا رحل والن مع جماعة تتكون من أربعة أفراد في ٣ يونيو (١٩ جمادى الثانية) من جبل شمر نحو العراق، وذهبت الجماعة عن طريق النجف.

لحظ والن أنه قد أتى إلى عالم مختلف، فعلى الرغم من أنه كان في العراق إلا أن المناخ المحيط في هذه المدينة

(17) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.462-499.

الروحية الشيعية كان فارسيًا تمامًا، سخر والن من هؤلاء الحجاج الشيعة الذين كانت أهم أمنياتهم أن يُدفنوا بجوار علي.

وصل والن إلى بغداد في منتصف الصيف في ٢٥ يونيو ١٨٤٨م (٢٤ رجب ١٣٦٤هـ)، وقد أصابت بغداد، عاصمة العباسيين المزدهرة، والن بخيبة أمل عند اقترابه منها، فقد انتظر والن أن يرى بشائر المدينة بمآذنها وقبابها العالية من بعيد على غرار القاهرة وإستانبول؛ ولكنه لم يلحظ شيئًا من هذا حتى دخول المدينة.

وقد طالت مدة إقامة والن في بغداد الموحشة أكثر من المتوقع، فحتى شهر أغسطس (رمضان ١٢٦٤هـ) لم يكن والن يعلم شيئًا عما سوف يحدث بعد ذلك. وكان من ضمن الاحتمالات أن يذهب إلى البصرة، ومن هناك يبحر إلى القطيف أو إلى مسقط ولكن قيظ الصيف جعل هذا الاحتمال آخر ما يمكن عمله. فيمكن القيام بهذه الرحلة التي كان مخططًا لها منذ فترة طويلة في شهر نوفمبر (شهر ذي الحجة)، ولكن ماذا يفعل والن حتى هذا الوقت؟

كان والن يقيم في المسكن المخصص للشيعة القادمين من شيراز، وأثار هذا في نفسه حبه القديم للغة الفارسية مرة أخرى. وعلى الرغم من اقتناعه بأنه سيخسر الكثير بتركه لعرب الصحراء وإقامته مع الفرس إلا أنه قرر القيام برحلة إلى بلاد فارس لمدة ثلاثة شهور. وكان سيذهب إلى شيراز عن طريق أصفهان، ومن هناك يعبر الخليج إلى شبه الجزيرة العربية بعد أن ينتهي القيظ.

يشرح والن في خطابه المؤرخ في ١٣ سبتمبر (١٥ شوال ١٢٦٤هـ) إلى غيتلين رحلته القادمة إلى بلاد فارس، وبعد عودته من هناك سيذهب إلى البصرة ثم يبحر من هناك إلى عدن ثم إلى أوروبا، أما الرحلات الطويلة إلى الصحراء فيمكن أن تؤجَّل قليلاً إلى المستقبل. كان هناك سببان يدفعان لتغيير خطة والن: السبب الأول عدم توافر المال، أما السبب الثاني فهو حالة الكآبة التي أصابت والن، فقد كان قلقًا بسبب بعده عن أوروبا وعن علمها وعاداتها وتقربه من الحياة الشرقية، ولذلك فقد كان في حاجة إلى العودة بسرعة إلى أوروبا؛ لأن حياته غدت كثوب الدرويش المكون من رقع صغيرة، ولم يتبق على اكتمال الثوب إلا رقعتين هما فارس واليمن(١٨).

وبعد يومين اتجه والن صوب حدود بلاد فارس، وكان يفكر في بعده عن بلده وشوقه في الوقت نفسه لرؤية بلاد فارس؛ فقد كانت فارس مشهورة بأدبها وبجمال طبيعتها المزدهرة؛ ولذلك أراد والن زيارة هذه البلاد، ولكنه علم بوفاة الشاه محمد ١٨٠٨-١٨٤٨م (١٢٢٣-١٢٦٤هـ) قبل وصوله إلى الحدود. وكذلك علم بأن البلاد في حالة اضطراب، ورأى أنه من الأفضل أن ينتظر حتى تهدأ الأمور هناك. وعندما وصل وفد الحجاج العائد من مكة الذي كان يتكون من ٤ إلى ٥ آلاف حاج إلى الحدود تشجع والن وقرر أن يذهب معهم في ١٢ أكتوبر (١٥ ذي القعدة).

(18) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.500-503.

في الغالب لم يذهب أي فنلندي إلى بلاد فارس قبل والن إلا هنريك برينير (Henrik Brenner) المولود في مدينة كرونوبي عام ١٦٦٩م (١٠٨٠هـ)، فبعد دراسته للغات والفلسفة في توركو وأوبسالا وفي عام ١٦٩٧م (١١٠٩هـ) ذهب مع سفير السويد لودفيج فابريتيوس إلى بلاد فارس ليكمل دراسته هناك. قضى برينير معظم وقته في أصفهان العاصمة في ذلك الوقت، ثم عاد في عام ١٧٠٠م (١١١٢هـ) مع سفير فارس المفوض إلى ستوكهولم ساروج خان بك، ونشبت في هذا الوقت الحرب بين روسيا والسويد وتم القبض على برينير في موسكو؛ لأنه كان يعد من الأعداء في هذا الوقت. وسُجن في روسيا طيلة فترة الحرب، ولم يرجع برينير إلى ستوكهَولم إلا في عام ١٧٢٢م (١١٣٥هـ) بعد عقد الصلح بين البلدين.

لم يكن هناك غرض علمي من رحلة والن؛ فقد أراد فقط أن يقضي بعض الوقت في البلد الذي درس بعض أدبه، وكان الجزء الأعظم من ملاحظات والن المدونة يتكلم عن شيئين: أولاً المقارنة بين العرب والفرس التي كانت تنتهي دائمًا في صالح العرب، أما الثاني فهو وصف حياة وطباع الشيعة. وقد زار والن قبري عظماء الشعر في فارس هما: سعدي (توفي ١٢٩٢م/ ٦٩١هـ) وحافظ (توفي ١٣٨٩م/ ٧٩١هـ) في شيراز. وقد ذهب والن في بلاد فارس من كرمنشاه التي كان فيها فيما بين ١٧و ٢٤ أكتوبر (٢٠ و ٢٧ ذي القعدة) إلى أصفهان من ٩ إلى ١٨ نوفمبر (١٣ إلى ٢٢ ذي الحجة) ثم شيراز من

٢٩ نوفمبر إلى ١٤ ديسمبر (٤ إلى ١٩ المحرم) ثم إلى الخليج العربي، وبعد ذلك اتجه إلى بوشهر التي وصل إليها في ليلة أعياد الميلاد.

ووصل والن إلى البصرة في ١٣ يناير ١٨٤٩م (١٩ صفر ١٢٦٥هـ)، كان والن يخطط في بعض الأحيان للعيش في هذه المدينة. وقضى شهرين من أسوأ الشهور في حياته في هذه المنطقة القذرة ولم يكن معه مال، ثم رجع على متن سفينة إنكليزية إلى بغداد، ثم حدث ما توقعه منذ نصف عام في خطابه لغيتلين، ويوضح ذلك في خطابه المؤرخ بـ ١٥ أبريل (٢٣ جمادى الأولى): "لاأستطيع الآن التفكير في الذهاب إلى الجزيرة العربية، وبالنسبة لبحث اللغة الحميرية والبحوث الأخرى التي أريد عملها فقد تبخرت في الهواء، وأصبحت مكسور الجناح كالفلاح الذي انكسر منه قدر الحليب في الشارع؛ لذا عليَّ أن أرجع إلى مصر عن طريق الموصل وحلب وبيروت، ولا بد أن أعطي ظهري للشرق وأنا أرى الرياح تحطم أحلامي"(١٩).

ولكنه لم يذهب إلى الموصل ولا إلى حلب، كما أنه لم يذهب إلى أماكن عديدة كانت في خطته؛ فقد اختار والن الذي يريد العودة بسرعة إلى أوروبا طريقًا أقل أمانًا ولكنه أسرع، وهو الطريق الذي يسلكه البريد الإنجليزي إلى دمشق؛ فقد كانت القوافل تقوم بهذه الرحلة في شهر، ولكن البريد الإنجليزي كان يصل في ثمانية أو تسعة أيام. وقد

(19) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.500-552.

حذّر بعض الناس والن من التعب الجسدي في الرحلة، ولكنه عرف أنه أيضًا يستطيع تحمل ما يتحمله البدوي؛ علاوة على ذلك كان الطريق خطرًا؛ فقد سرق البدو حمولة البريد في المرات الأربع السابقة، وقتلوا ساعي البريد في المرة الأخيرة. وقد رحل والن مع حمولة البريد في ١٧ أبريل (٢٥ جمادى الأولى ١٢٦٥هـ) على ظهر جمل صوب دمشق، وكان قد تعلم من البدو القدرة على النوم على ظهر الجمل، بعد أن كان يتعجب من قدرتهم على ذلك. وكانت هذه القدرة مهمة جدًا في هذه الرحلة التي تستمر بدون توقف إلا القليل. في اليوم الثامن ظهر فجأة عشرة رجال يركبون الجمال، وسرقوا من المسافرين كل شيء حتى ملابسهم الداخلية. وانكشف بعد ذلك أن السارقين من بدو الرولة، وكان شيخهم الأكبر حطاب بن شعلان "أخو" (حامية) والن خلال رحلته الأولى. وكان والن قد نجح في الجوف في معالجة الشيخ من أمراضه العضوية والنفسية. ولذلك لم يكن والن من الأشخاص الذين يمكن سرقتهم، وأعاد السارقون على مضض الجزء الأعظم من المسروقات.

ووصل والن إلى دمشق في يوم ٢٦ أبريل (٤ جمادى الآخرة ١٢٦٥هـ)، واستراح هناك لمدة أسبوعين قبل أن يتوجه إلى بيروت، وذهب على متن سفينة فرنسية تعمل بالبخار إلى مصر. وحُجز والن مرة أخرى في الإسكندرية ولم يرجع من رحلته للصحراء التي استغرقت سنة ونصف إلى القاهرة إلا في الأول من يونيو (١١ رجب ١٢٦٥هـ).

## رحلة العودة إلى هلسنكي:

كـان في وداع والن في الإسـكندرية الـرحـالة الألمان أدولف فـون فـريده و بريم (Adolf von Wrede & A. E. Brehm)، وذلك في ٩ أغسطس ١٨٤٩م (٢١ رمضان ١٢٦٥هـ)، وركب سفينة تعمل بالبخار إلى أوروبا. وقبل أسبوع من سفره كان محمد علي الذي حكم مصر فترة طويلة قد مات في الإسكندرية، وتابع والن كيف نُقل جسده من الإسكندرية إلى القاهرة ليدفن هناك. قضى والن في الشرق ست سنوات من أمتع سنوات حياته وهاهو الآن عائد إلى بلاده.

## خطة الرحلة الجديدة:

اتضح لوالن أثناء وجوده في لندن أنه لن يبقى في أوروبا. وكان راولنسون (H. C. Rawlinson) المعروف بأبي علماء الحضارة الآشورية قد استعلم من والن في أثناء وجوده في لندن عن رغبته في القيام برحلات جديدة إلى شبه الجزيرة العربية. قابل والن راولينسون لأول مرة في بغداد في أثناء رحلته الثالثة في الصحراء عندما كان راولينسون يعمل قنصلاً لبريطانيا. وبدأ والن بشغف كبير في التخطيط لرحلة جديدة شاملة بعد أن وصل إلى هلسنكي مباشرة. وقد عد والن أن رحلاته السابقة كانت إعدادًا جيدًا لرحلاته التالية، ولم يكن راضيًا عن نتائج رحلاته السابقة. وبعد أسبوعين فقط من عودته إلى هلسنكي تم إعلامه بطريقة غير رسمية أن الجمعية التاريخية الملكية البريطانية مستعدة للمشاركة في تحمل النفقات إذا كانت عنده رغبة في القيام برحلة

جديدة إلى شبه الجزيرة العربية. وقد تضمن الاقتراح قيام والن برحلة مدتها قرابة عامين ومنحه نحو ٣٠٠ جنيه إسترليني.

بعد ذلك أرسل سكرتير الجمعية نورتون شاو (Norton Shaw) خطابا، وحدد فيه أن الرحلة ستكون لمدة عامين، وسيدفع البريطانيون ٢٠٠ جنيه إسترليني من تكاليف هذه الرحلة. ولكنه رفض هذا الاقتراح مباشرة، فلم يكن ينوي أن يقوم بمثل هذه الرحلات القصيرة التي ينقصها الوقت والمال الكافيان لتحقيق ما هو مخطط له مثلما حدث في المرات السابقة.

وكتب والن إلى شاو في ١٣ يناير ١٨٥١م (١١ ربيع الأول ١٢٦٧هـ) يقول له: "سأبقي الذهاب إلى الشرق ولا سيما إلى صحراء شبه الجزيرة العربية الهدف الأول والأكبر في حياتي، وسأحاول أن أنفذ خطتي للذهاب إلى هناك بأسرع وقت ممكن... يمكن أن أرجع إلى هناك كرحالة أوروبي لأبحث أرض العرب المجهولة، وسوف أقدم نتائج أبحاثي إلى البلاد الغربية الطالبة للعلم، وبالطبع قبل كل شيء إلى جمعيات لندن المتحضرة... أو ربما أذهب هناك من أجل سعادتي الشخصية فسوف أبعد عن حياة أوروبا الضاغطة، وأتمتع بطبيعة الصحراء الغنية. وسوف أنعم بحياة البدو المليئة بالحرية والنشاط، وأستريح من حياة الزهو والتمسك بالتقاليد في أوروبا. ويمكن لي أن أحيا وأموت كالبدوي الحر بين رجال الصحراء الأحرار. وأنا مستعد أن أدير ظهري في

أي وقت للغرب، وأن أتجه بوجهي إلى الشرق، وسوف أفعل ذلك عاجلاً أو آجلاً"[٢٠]. وقد قدر والن أن رحلته الثانية إلى الشرق ستحتاج إلى ست سنوات، سنة تُخصص للتجهيزات المختلفة، وخمس سنوات في الجزيرة العربية.

ولأن إنجلترا لم تقدر على تقديم الدعم المالي الكافي لهذه الرحلة الطويلة فقد تم من هناك الاتصال برئيس جمعية روسيا الجغرافية القيصرية الدوق الكبير كونستانتين (Kon-stantin). واقترحت جمعية إنجلترا أن تقوم الجمعيتان بالإنفاق المشترك على هذه الرحلة، وتم الاتصال بوالن من سانت بطرسبورغ لمعرفة خطته، وقد شرح والن خطته في خطاب أرسله إلى نائب رئيس الجمعية الجنرال مورافيوف (Muravjov) في ١٨٥١/٥/٦م (١٢٦٧/٧/٦هـ) وكانت خطته مشابهة إلى حد كبير لخطة رحلته الأولى للشرق. وقد تمنى أن يكون في مصر في أواخر صيف ١٨٥٢م (١٢٦٨هـ)، أما بحوثه الأساسية فسوف يبدأها من شاطئ البحر الأحمر؛ ففي الحجاز سوف يبحث آثار ما قبل الإسلام، ثم يذهب بعد ذلك إلى نجد، ومن هناك سيحاول من جديد أن يذهب إلى الرياض وإلى الربع الخالي. وغالبًا سيزور بعد ذلك بغداد، ومن هناك سوف يتجه صوب عمان والمهرة واليمن، هذه الأماكن التي لم تنجح محاولته لزيارتها في المرة السابقة. ومن عدن سوف يرجع إلى أوروبا أو سوف تستمر إقامته في

(20) K. Tallqvist, Bref Och Dagboksanteckningar of G. A. WAllin (Helsingfors, 1905), p.323-29.

منطقة أخرى من شبه الجزيرة العربية، وسيعتمد تحقيق هذا كله على إرادة الله، بمعنى آخر: إذا أعطاني الله الصحة والمال.

ولسوء التفاهم تعقدت الأمور، ورأى والن أن الدعم المادي المعروض عليه لا يكفي للقيام بالرحلة، وعلى الرغم من عدم تعارض المصالح بين إنجلترا وروسيا في الجزيرة العربية إلا أن الحقد والشك في حوافز الطرف الآخر ونواياه قد تكون هي السبب في تعثر المفاوضات بين الطرفين، علاوة على ذلك كانت روسيا ترغب في أن يتجه والن ببحوثه صوب دول وسط آسيا الإسلامية؛ لأن النفوذ الروسي ازداد في تلك المنطقة في عقد ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) ولكن والن أعلن في يناير ١٨٥٢م (ربيع الأول ١٢٦٨هـ) أنه لا يرغب في الذهاب إلى هذه المناطق، وعلل ذلك بأنه لا يتكلم لغات هؤلاء الناس، ولأنه "في زيارتي السريعة لبلاد فارس عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) لم أشعر تجاه هذا الشعب الذي فقد طباعه وأخلاقه أي شعور إكبار، وأعتقد أن عادات هذا الشعب وطباعه قريبة جدًا من هذه الشعوب التي تريدونني أن أذهب إليها، على عكس ذلك فأنا أشعر بالحب والاحترام تجاه البدو الشرفاء النبلاء. الخوف والضجر هما الشيئان اللذان يأتيان إلى ذهني عندما أفكر في المخاطر والمغامرات التي سأواجهها بين البلوش والأفغان والتركمان، وإذا افتقد الرحالة الرغبة في العطاء فلن نحصل على نتائج"[٢١].

(21) K. Tallqvist, 1905, p339-44.

كان من المتوقع ألا يعود والن من رحلته الثانية للشرق، وقد عضدت مذكراته وخطاباته هذا الاعتقاد. ويا للعجب فها هو والن الرحالة، يكتب في مذكراته في ٢٦/١٠/١٨٤٩م (١٠/١٢/١٢٦٥هـ) أنه يتمنى من الله أن يموت ويدفن في الصحراء[٢٢].

ولكن هذه الأمنية لم تتحقق؛ ففي أثناء المفاوضات حول الدعم المادي للرحلة مات والن فجأة في منزله في هلسنكي في ٢٣ أكتوبر ١٨٥٢م (١٠ محرم ١٢٦٨هـ) ولم يُعرف السبب الحقيقي لوفاته مبكرًا، لأنه لم يتم تشريح الجثة، وسيظل سبب الوفاة في محل للافتراضات. وقد يكون لبقاء والن في الشرق لمدة طويلة وتقبله لعادات وقيم هذه البلاد ثم العودة إلى بلاده، التي أصبحت غريبة عنه، السبب في إصابته بصدمة نفسية.

## نتائج رحلات والن:

ذكر والن أن رحلاته للشرق كانت غير ناجحة، وقد عبر عن ذلك في رسالة أرسلها في ٦/٣/١٨٥٠م (٢٢/٤/١٢٦٦هـ) من لندن وكان حينئذ مصابًا بحالة من الكآبة "في رحلة عمري كان لديّ هدف واحد: أن أصل إلى الواحة البعيدة في الصحراء قبل غروب الشمس، ولكن راحلتي جاعت وخلا سنامها من الدهن وأدى بي التخيل إلى ضلال الطريق"[٢٣]. ولو ألقينا نظرة على خطط والن لهذه الرحلات والأهداف الموضوعة لها - وقد كانت بعيدة عن الواقع - يمكن أن نفهم خيبة أمله هذه.

(22) Kaj Öhrnberg, 2007,p.571.

(23) Ibid., 571.

كانت منشورات والن العلمية جيدة وذات قيمة، ولكنها كانت قليلة، ومن وجهة النظر هذه الأيام فهي ليست إلا ذكريات قيمة عن علم اللغة العربية في مراحلها المبكرة.

كان والن مستشرقًا إنسانيًا، فعلاوة على أنه كان يحاول أن يذيب كل الفوارق في الحياة اليومية، وقد كان فريدًا في ذلك، فقد أتى بوصفه باحثًا ورحالة تقليديًا إلى العالم الإسلامي وتقمص أدوارًا مختلفة؛ لكي يتعرف على المجتمع من الداخل. وشيئًا فشيئًا انقلب الذوبان في المجتمع من طريقة للحذر إلى طريقة في الحياة. وقد اعترف والن بأنه أصبح "شرقي الطبع"، وتخبرنا خطابات والن ومذكراته، التي تعد مستندات فريدة من نوعها، عن تعايش والن واستسلامه الكامل لحضارة الشرق وقبوله لقيم هذا المجتمع ومنها الدين.

كتب كل من نيبور وبوركهارت قبل والن وبورتون بعد والن عن بدو شبه الجزيرة العربية، ولكن والن كان أول أوروبي يتعرف عليهم فعلاً وعلى طريقتهم في الحياة ويعيش معهم لفترة طويلة. لم تكن غاية والن الرئيسة وطنية أو محلية كما كانت لمعظم الباحثين الكبار من جيله. ولذلك لم يفهم الناس في فنلندا تمامًا معاني وأهداف رحلات والن على الأقل مقارنة برحلات كاسترين. أما في المجتمع الدولي فقد بلغت سمعة والن - بصفته رحالةً وعالمًا بالحضارة العربية - ذروتها بعد وفاته مباشرة في عقد ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) فقد تم نشر نتائج رحلاته في المنشورات الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ولا يشار إلى والن في كتب التاريخ الحديثة إلا بعدة سطور قليلة، أو يتم ذكره في حاشية الكتاب. ويعد هذا

الأمر مفهومًا؛ لأن مكانة الرحالة تتحدد بما يعرفه الناس عن إنتاجه. ولم يستحق والن على ما نشره مكانة أفضل ولا حتى ما نشره الآخرون من أعماله بعد وفاته. رغم أنه من الصعب أن تجد في أي مكان في العالم من حطم حاجز اللغة وأتى إلى الناس بهذا القدر الهائل من التفاصيل كمثل ما هو قادم من أعمال والن.

وبجانب المعلومات الأساسية عن حياة والن ورسالتيه للدكتوراه كان كل إنتاجه الآخر يتعلق برحلته إلى الشرق. والاستثناء الوحيد هو ما نشره في عام ١٨٥١م (١٢٦٧هـ) فقد كتب تفسيرًا لشرح العلامة بدر الدين على قصيدة والده العلامة ابن مالك المشهورة بلامية الأفعال. ولم يستطع والن نشر كل المعلومات الخاصة برحلاته إلا القليل منها. أما الغالبية العظمى من ملاحظاته العلمية ومفكراته وخطاباته فقد تُركت للآخرين لنشرها.

وإذا أردنا أن نتحدث عن هذا الموضوع بدقة فإن والن كان قد أرسل إلى المطبعة مقالاً واحدًا[٢٤].

أما المحاضرة التي ألقاها في لندن فقد نشرت في حياته وكانت بعنوان: "ملحوظات مأخوذة خلال رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة العربية في عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ)"[٢٥].

(24) G. A. Wallin, “Probe aus einer Anthologie neuarabischer, inder wuste”, Zeitscrigt der Deutschen Morgenlandischen Gesellscaft, Vol.5-6, 1851-1852.

(٢٥) انظر الهامش رقم ٢١.

وفي أواخـــر صـــيف ١٨٥١م (١٢٦٧هـ) حـصل والن على نسخة من مقاله هذا وأصيب بخيبة أمل، فقد اكتشف أن شخصًا يدعى فريد أيرتون (Fred Ayrton) الذي تولى مهمة نشر المقال قد أضاف إلى المقال "العديد من التعليقات والحواشي على غرار تلاميذ المدرسة". وكان والن قد انتهى في الصيف نفسه من كتابة عمل خاص برحلته الأولى للصحراء، وكان قد أرسله إلى لندن. ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٨٥٤م (١٢٧٠هـ) وكان تحت عنوان: "قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس ووادي عربة والطفيلة والجوف وجبة وحائل ونجد في عام ١٨٤٥م"[٢٦].

ولو كان والن مازال حيًا في ذلك الوقت لكان على الأقل قد صُدم بنفس الصدمة بعد نشر مقاله السابق. ففي هذه المرة تولى رينوارد (G. C. Renouard) أعمال الخبير، وأفسد المقال بما أضافه وبتعليقاته. وفي عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) نُشر لوالن في المجلة نفسها مقال ثالث، وكان في هذه المرة يتعلق برحلته الثانية في الصحراء تحت عنوان: "قصة رحلة من القاهرة إلى القدس عبر جبل سينا"[٢٧].

وكان سكرتير الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية الدكتور بورتون شاو الذي يعرف اللغة السويدية جيدًا قد ترجم هذا الجزء من الجريدة السويدية التي كان منشورًا بها في عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) خطاب والن عن الرحلة.

(٢٦) انظر الهامش رقم ١٢.

(٢٧) انظر الهامش رقم ١٦.

كان والن قد كتب إلى شاو في مايو ١٨٥١م (رجب ١٢٦٧هـ) أنه ينوي كتابة عمل كبير للقراء عن رحلاته. آملاً أن يجد في لندن من يستطيع ترجمته عندما يتم. وقد وجد من ضمن أوراق والن بعد وفاته أوراق مكتوبة بخط اليد عن بداية رحلته الأولى في الصحراء، وقد نشرت في عام ١٨٥٣م (١٢٦٩هـ)[٢٨].

وكان هذا العمل ضخمًا جدًا فقد وصلت الأوراق المطبوعة عن الأيام الثمانية الأولى من رحلة والن الأولى في الصحراء إلى ١١٨ صفحة إلى جانب ست صفحات حواش باللغة العربية. ولا يمكن لنا تخيل حجم هذا العمل لو كان قد طُبع كله. فإذا كانت المغادرة من القاهرة قد أخذت كل هذا الاهتمام فما بالك بالباقي؟! وللأسف كان النص لا يصلح للقراءة. ولم يكن والن يحترم المجتمع الأكاديمي لتظاهره بالعلم، ولكنه نفسه كان في كتابه المخصص لقاعدة عريضة من القراء كان مدعيًا للعلم ومركزًا على مدى علمه ومهتمًا بالتفاصيل إلى ما لا نهاية، وقد وُجدت مسودات مقالين خاصّين بعلم اللغة من ضمن الأشياء التي خلفها[٢٩].

(28) Georg Aug. Wallins Forsta resa Fran Cairo till Arabiska Okneni April 1845 (Helsinki, 1853).

(29) G. A. Wallin, "Uber die Laute des Arabischen und ihre Bezeichnung", zeitschrift der Deutscen Morgenlandischen Gesellschaft, vol. 9 and 10, 1855-1858; G. A. Wallin, " Bemerkungen uber die Sprache der Beduinen", Zeitscrift der Morgenladischen Gesellschaft, vol.12, 1858.

وقد نشر المغرين (S. G. Elmgren) الجزء الأعظم من مذكرات ومراسلات والن في أربعة مجلدات(٣٠).

وتكملة لذلك نشر كنوت تالكفست (Knut Tallqvist) في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) مجموعة أخرى من رسائله(٣١).

تضم هذه الأعمال المذكورة كل الأعمال المطبوعة من إنتاج والن. وكان العمل الذي نشره المغرين ناقصًا، وقد تسبب المغرين في هذا. فقد غير وحول كثيرًا في النص حتى أصبح النص الأساسي ذا لغة تقليدية جدًا. ولأن المغرين لا يعرف العربية فقد ترك كثيرًا من المصطلحات المكتوبة باللغة العربية على هيئتها.

هذا ولابد أن تُتَرجم خطابات والن ومفكراته إلى لغة عالمية، ومن الأفضل أن تكون اللغة الإنجليزية؛ لكي يتعرف المجتمع الدولي على إنتاجه، وبذلك يحصل على المكانة الحقيقية التي يستحقها؛ فسوف يعطينا إنتاج والن الكثير من المعلومات عن العالم الإسلامي في عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر وعن ظروفه وطريقة الحياة فيه خاصة في شبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد فارس.

## الجسر المنهدِم:

لم تولّد رحلات والن أي تدفق للفنلنديين على الشرق الأوسط. ليس هذا فحسب، بل إن المجتمع العلمي الأكاديمي

(30) S. G. Elrngren, Georg august wallins Reseantecknin gar Fran orienten, aren 1843-1849, 4 vol. (Helsinki, 1846-66).

(٣١) انظر الهامش رقم ٢٢.

لم يهتم في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بالدراسات التي تتم على أرض الواقع إلا إذا كانت تتعلق بأهداف وطنية، ولم يذهب أي فنلندي إلى البلاد العربية إلا بعد وفاة والن بربع قرن. قد تبدو هذه المعلومة غريبة بعض الشيء ولكن هذه هي الحقيقة.

درس كارل فريدريك إينيبري(Karl Fredrik Eneberg) اللغات الشرقية في جامعة هلسنكي، ولكنه جذب الانتباه في الحياة الأدبية أيضًا بصفته شاعرًا واعدًا. وبعد حصوله على الماجستير في الآداب استمر إينيبري في دراسة اللغات السامية ولا سيما العربية في سانت بطرسبورغ ثم في ليبزغ وكيل. وقد ناقش رسالته للدكتوراه في عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ)، وكان موضوعها عن الضمائر الشخصية في اللغة العربية، ولم تجد هذه الرسالة ولا رسالته الأخرى للأستاذية التي ناقشها في عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) قبولاً في بلده ولا في الخارج، وقد تسبب ذلك في إنهاء طريقه باحثًا للغة العربية. وللمرة الثانية كان إينيبري أمام خيار صعب، ففي المرة الأولى كان قد ترك الشعر من أجل العلم، وهاهو الآن يترك اللغة العربية ليصبح أول عالم للآشوريات في فنلندا.

كان عقد ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) هو الوقت الذي اهتم فيه علماء الأدب في كل مكان بمناقشة المشكلات المتعلقة باللغة السومرية. سكن السومريون الأجزاء الجنوبية من بلاد النهرين في بداية فترة التاريخ المكتوب، لكن أصلهم ولغتهم كانا مجهولين. وفي وقت ما طرحت فكرة القرابة بين اللغة

الآشورية، المشابهة لرؤوس المسامير في كتابتها، وعائلة اللغات الفنلندية الأوغرالية. وقد حازت هذه الفكرة على اهتمام بعض الفنلنديين خاصة أوتّو دونّير (Otto Donner 1835-1909) الذي نجح في إقناع إينيبري بالاتجاه إلى دراسة الحضارة الآشورية بعد أن كان منغمسًا في دراسة الحضارة العربية.

سافر إينيبري إلى باريس بعد شهر واحد من مناقشته لرسالة الدكتوراه في الأستاذية ليبدأ دراسة الحضارة الآشورية. وفي الغالب كان إينيبري يعلم أنه ليس هناك أي نوع من القرابة المدّعاة بين السومرية والفنلندية الأوغرالية. وقد كتب بذلك إلى معلمه فيلهيلم لاغوس (Wilhelm Lagus) في مايو ١٨٧٥م (ربيع الثاني ١٢٩٢هـ) ولكنه في أكتوبر (رمضان) من العام نفسه كتب إلى دونير بأنه من المحتمل أن تكون هناك درجة قرابة بين اللغتين. وفي ديسمبر (ذي القعدة) سافر إينيبري إلى لندن ليكمل دراساته هناك وليحاول اللحاق بالجماعة المسافرة من المتحف البريطاني إلى آثار نينوى في بلاد النهرين[٣٢].

كان رئيس الجماعة المسافرة جورج سميث (George Smith 1840-1876) مسافرًا للمرة الثالثة إلى بلاد النهرين للقيام بحفريات هناك، وقد قابله إينيبري في يناير ١٨٧٦م (ذي الحجة ١٢٩٣هـ) وحصل على موافقته بالانضمام إلى الجماعة المسافرة. وقد ظهرت بعض الخلافات في الرأي

(32) Otso Kantokorpi, Karl Fredrik Eneberg runoilija ja Orientalisti, in Otso Kantkorpi (Toim), Taikamatto (Helsinki: Suomen Itamainen Seura, 1982), p.45.

بين إينيبري وهذه الجماعة من البداية، فبينما قرر سميث الذهاب إلى بغداد أولاً ذهب إينيبري مباشرة إلى الموصل التي كانت آثار نينوى تقع على مشارفها. وفي حلب افترقت طرق الجماعة، ورحل إينيبري مع شخص يهودي من البندقية يعيش في حلب اسمه ماركو كان إينيبري قد استأجره ليكون مترجمًا وخادمًا. قضى إينيبري في الموصل خمسة أسابيع ولكن معلوماتنا عنها ضئيلة جدًا. وقد أوضحت المعلومات القليلة التي وجدت في مفكراته وكذلك خطابه المرسل إلى دونير في ٤ مايو (١٠ ربيع الثاني) أنه حزين ويريد العودة إلى فنلندا فهو لا يمتلك زمام الأمور في حياته. ويعترف في خطابه بأنه "هناك شعور غريب في البعد عن فنلندا كل هذه المسافة الطويلة. وشعر في أوقات كثيرة بالاكتئاب، وأعتقد أنه كان يجب أن يقوم بهذه المهمة شخص آخر أكثر شجاعة وجرأة وأكثر تفتّحًا مني، ولكن هذا هو نصيبي وسيكون من الخزي أن أتركه". وكانت آخر ملاحظاته المكتوبة مؤرخة في ٢٠ مايو (٢٦ ربيع الثاني): "تحطم الجسر وتوفي ناس وجمال"(٣٣). وبعد أربعة أيام في ٢٤ مايو ١٨٧٦م (١ جمادى الأولى ١٢٩٣هـ) وُجد إينيبري ميتا في فراشه. أما عن سبب الوفاة فهو غير معروف، وقد شكك البعض في أن ماركو قد أعطاه سمًا. على أي حال إن كان سبب الوفاة هذا أو ذاك فسوف تبقى حقيقة واحدة، وهي أن الشرق الذي رآه إينيبري كان يختلف عن الشرق الذي كان يحمله هذا الشاعر في صدره، وهاهو إينيبري يموت في الصحراء، وهي الأمنية التي كان والن يتمناها لنفسه.

(33) Ibid., p.51.

## الرحلة الكبرى:

في نهاية القرن كانت الرحلات البطولية لدراسة الحضارات الشرقية قد انتهت واحتاج العالم إلى حرب عالمية لكي يظهر شخص مثل لورانس العرب. وقد اهتم المستشرقون في هذا الوقت بأشياء أخرى غير الأوقات المزدهرة الماضية واللغات الميتة في هذه الحضارات. ولا سيما الباحثون في الدول الاستعمارية الذين اهتموا بالوضع القائم في بلاد الشرق، ولم يكن هذا غريبًا؛ فقد عمل معظمهم - إن لم يكن كلهم - في حكومات هذه البلاد دبلوماسيين أو مستشارين. ولكن باحثي الدول غير الاستعمارية كانوا مهتمين بالدول التي سميت منذ خمسينيات القرن الميلادي العشرين (سبعينيات القرن الرابع عشر الهجري) بدول العالم الثالث، ففي أول القرن العشرين قام المستشرقون برحلاتهم، لأنه كان لابد من ذلك، فقد كانت الرحلة إلى الشرق جزءًا من برنامج التعليم، ويمكن هنا أن نذكر الرحلات الكبرى للأثرياء الصغار الإنجليز والروس والأمريكيين إلى قارة أوروبا.

كانت نتائج رحلات والن قد دُرست بطريقة أو بأخرى من قبل هواة دراسة الحضارة العربية والإسلام وكذلك كنوت تالكفست. وقد نشر تالكفست في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) جزءًا من خطابات ومذكرات والن غير المنشورة من عقد ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)[٣٤]، علاوة على ذلك فقد كتب عن سيرة حياة والن العمل الوحيد الضخم حتى يومنا

(٣٤) انظر الهامش رقم (٢٢).

هذا[٣٥]، وكانت رحلات والن هي السبب في أن تالكفست شرع في دراسة العلوم الشرقية. وبعد أن حصل على شهادة الماجستير من جامعة هلسنكي في عام ١٨٨٩م (١٣٠٦هـ) سافر إلى ألمانيا، وأكمل في جامعتي ليبزغ وبرلين دراسة اللغات السامية والحضارة الآشورية. وقد رحل تالكفست في نوفمبر ١٨٩٣م (جمادى الأولى ١٣١١هـ) في رحلته الكبرى، وذلك بعد أن حصل على منحة الإسكندر، وهي المنحة التي كان والن قد حصل عليها منذ نصف قرن من قبل، وأجَّل بها العودة إلى بلاده.

وبعد أن زار تالكفست مكتبات ومتاحف برلين وفيينا وصل إلى إسطنبول في يناير ١٨٩٤م (رجب ١٣١١هـ)، وقضى هناك شهرين في تعلم اللغة التركية وفي زيارة المتاحف والمكتبات وفي القيام برحلات حتى بورصه.

ويصف تالكفست رحلته في كتاب نشره في عام ١٩١٨م (١٣٣٦هـ)[٣٦]، أي بعد عشرين عامًا من هذه الرحلة وبعد تغير صورة العالم. ومن حسن حظنا أيضًا أن خطاباته إلى خطيبته إيرينه باكستروم (Irene Backstrom) قد حفظت، وبلغ عدد الخطابات التي أرسلها الخطيبان إلى بعضهما في هذه الفترة إلى ١٨٠ خطابًا، وكان تالكفست في هذه الخطابات أدق في وصفه للأحداث اليومية وما شاهده أكثر من عمله الذي نشر في نهاية الحرب

(35) K. Tallqvist, Yrjo Aukusti Wallin (Helsinki, 1903).

(36) K. Tallqvist, Palvelig Och ihelig Mark (Helsingfors, 1918).

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

العالمية[٣٧]. وقد زار تالكفست مقابر المسلمين، التي عدها الأكبر في الشرق، في سكوتاري في الجزء الآسيوي من إسطنبول. وفي وصفه لهذه المقابر يوضح لخطيبته أن السبب في كبر مساحتها يرجع إلى رغبة الأتراك في أن يُدفنوا في أرض آسيوية رحبة. ثم يتبع ذلك بوصف دقيق للمقابر بطريقة شعرية لكن كتابه لم يتضمن وصفًا للمقابر. وكان يستخدم كثيرًا تعبير "رجل أوروبا المريض" تعبيرًا عن الأتراك، ويقول: إن الأتراك، كانوا يعرفون أن الأوروبيين سيطردونهم من أوروبا ولذلك بنوا مقابرهم في الجانب الآسيوي من بلادهم. وأضاف: إن مناخ آسيا يناسب الرجل المريض. ويعد هذا العمل رمزًا جيدًا لتوضيح أن معظم كتب الرحلات تُولد من المواقف الاجتماعية.

وقد رأى تالكفست منظرًا بديعًا من على سطح السفينة بعد مغادرته إستانبول بأحد عشر يومًا، وكان هذا المنظر أجمل ما رأى على الإطلاق: منازل بيروت البيضاء في وسط الخضرة وفي الخلف قمم جبال لبنان المغطاة بالثلوج، وكان البحر الأبيض المتوسط يتوج ذلك كله، وكان صباح يوم ربيعي جميل، فكانت الطبيعة مفعمة بالزهور والهواء معطرًا برائحة النباتات والورود، وظل يتذكر هذا المنظر الذي لا ينسى بعد مرور ثلاثين عامًا.

(37) Knut Tallqvist Och Hans fastmo: Deras brewaxing Under hans resa i orenten 1893-1899 (Heisnafors, 1980).

## خاتمة:

يعد أدب الرحلة من الأجزاء الغنية في الأدب العربي، وهذا النوع ينضم إلى علم الأدب أكثر منه إلى علم الجغرافيا. وهناك رحالان اثنان يعدان مثلاً أعلى وصورة للكمال في وصفهم الأدبي. والاثنان من الجزء الغربي من العالم الإسلامي، واحد من الأندلس والآخر من المغرب؛ أما الأول فهو ابن جبير ١١٤٥-١٢١٧م (٥٣٩-٦١٣هـ) الذي قام برحلة إلى العالم العربي الإسلامي ١١٨٣-١١٨٥م (٥٧٨-٥٨٠هـ) وكانت الأماكن الرئيسة في رحلته هي مكة والمدينة ولكن برنامجه تضمن أيضًا الإسكندرية والقاهرة وبغداد ودمشق. أما الثاني فهو ابن بطوطة ١٣٠٤-١٣٦٨ أو ١٣٧٧م (٧٠٣-٧٦٩/٧٧٠ أو ٧٧٨هـ) الذي استحق لقب "الرحالة الإسلامي". فقد قام فيما بين أعوام ١٣٢٥هـ و١٣٥٤هـ برحلة إلى كل البلاد الإسلامية، بل تخطى حدود البلاد الإسلامية وذهب إلى سيلان والصين وإسطنبول.

يذكر المستشرق الإنجليزي نيتّون (I. R. Netton) أن كتاب ابن جبير مثله مثل مكان فرساي المملوء بالمستنقعات والخالي من الشجر قبل أن يقوم بستاني لودفيغ الرابع عشر أندريه لي نوتري (Andre Le Notre 1613-1700) بتحويله إلى حديقة فرنسية جميلة، وكتاب ابن بطوطة مثله مثل هذه الحديقة. إذا أنزلنا هذا التصنيف على الرحالة الفنلنديين إلى بلاد الشرق فسيعد إنتاج والن مثل الغابة البرية المملوءة بالأعشاب المتفرقة في كل مكان، أما إنتاج تالكفست فمثل الحديقة الفرنسية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

ويجب مراعاة أن والن رجل العلم يحاول بدون إدراك ولا فهم أن ينزع الأعشاب الصغيرة الضارة من غابته الوحشية، في حين أن لتالكفست حديقة هي غاية في النظام والترتيب، ولكنه يترك الأعشاب الضارة والنباتات المزهرة الصغيرة لتنمو في هذه الحديقة.